روايات الهلال

محمد البساطى

الخالدية



الخالدية

تأليف

محمد البساطى

●

دار الهلال

الغلاف للفنان :

محمد حجى

وكان مساء

وكان صباح ...

متى جاءته الفكرة ؟

ربما راودته زمنا ولم ينتبه لها . تومض وتختفى . فى لحظة تجسدت . وكان يرقبها عابسا . لم يرغب بعد فى تأملها . يفضل أن يبقيها على بعد فترة من الوقت .

يغادر حجرته فوق السطح فى موعد لا يتغير . السابعة صباحا . يرمى ببصره قبل أن يهبط السلم إلى أرجاء السطح الواسع ، ربما غافله البعض من الجيران وألقى بكراكيب فى الأركان . ظل السطح نتيجة لصرامته خاليا ونظيفا . كان يطيب له فى الليالى المقمرة أن يتمشى ويستند إلى سوره ، ينظر من مكانه المرتفع إلى الأضواء المترامية، والناس والسيارات فى الشوارع بحجمها الصغير أشبه بلعب الأطفال .

يلبس بالطو قديما اهترأت ياقته وطرفا كميه ، يلبسه شتاء وصيفا ، فى البداية كان يرتديه ليستر به ما يكون متسخا من ملابسه ، فكثيرا ما ينسى أن يغسلها، ثم اعتاد عليه.

خطوته الوقور وهو يهبط السلم . البيت من خمسة أدوار ، والدور من شقتين، والشقة صغيرة ، حجرة وصالة . لم يدخل واحدة منها . علاقته بالجيران اقتصرت على التحيات العابرة . لاهو ولاهم رغبوا فى أكثر من ذلك . يلتقى أحيانا فى الدور الثالث بواحدة منهن . امرأة فى منتصف العمر . زوجها كما بلغه يعمل بنظام الورديات، وأحيانا يغيب أياما . تكون منحنية تكنس عتبة شقتها ، ترمقه فى انحناءتها . الرغبة فى عينيها لا

تخفيها ، وصدرها الممتلىء يطل من فتحة البلوزة وقد فكت الزر الأخير لتطلقه ، يتحاشى نظرتها . هو بالنسبة لها علاقة آمنة. أعزب. فى نفس البيت . خطوات وتصبح عنده ، لن يتساءل أحد عن صعودها للسطح، تنشر غسيلا بعد أن اكتفى منشرها . تُغير وضع ايريال التلفزيون . أى سبب . جميلة أو غير جميلة لا يرغبها . هى أو غيرها . لن يأتى من ورائهن غير الازعاج . لا يتخيل نفسه مع واحدة فى الحجرة. فى خلوته لا يريد أحدا ، يسترخى فى الفراش ، ويشرد فكره هنا وهناك ، يفضل أن يتخيلهن يتحركن فى الحجرة بالطريقة التى يرغبها، ويهمسن بالكلام الذى يريده . هى جارته . حاولت مرة. كانت الأولى والأخيرة . رغم ذلك مازالت نظراتها تدعوه . صعدت إلى السطح ، لمحها من فتحة باب حجرته الموارب ، كانت بجلباب البيت وشبشب قطيفة فى قدميها ، سارت إلى ايريال التلفزيون ثم عادت . وقفت بباب حجرته مائلة بكتفها إلى حلق الباب ، قدماها متعانقتان , وأصابع يدها تتحرك خفيفا على صدرها . أشياؤه مبعثرة فى فوضى بالحجرة ، هو راقد فى الفراش.

سألته وعيناها فى عينيه أن يساعدها فى تغيير اتجاه ايريال التلفزيون فالصورة عندها مشوشة وموعد المسلسل اقترب .

قال انه لا يفهم فى اتجاه الايريال ، ويمكنها أن تسترشد باتجاه أى إيريال آخر.

كأنها لم تسمعه . ظلت فى وقفتها . نظراتها هنا وهناك .

تسأله أين يضع تلفزيونه ؟

يقول أنه ليس لديه تلفزيون .

تسأله ولا ترى المسلسل ؟

لا يجيب .

تغمغم : وكنت أقول أرى المسلسل عنده .

نظرة أخيرة إليه واستدارت مبتعدة . خطوتها لا تزال بالسطح ، ليس بحاجة لأن يغلق الباب . يعرف أنها لن تعود مرة أخرى .

الحارة الضيقة تفضى إلى موقف الأوتوبيس ، ينقله إلى مديرية الأمن حيث يعمل مراجعا للحسابات ، أمامه ربع ساعة لينتهى من فطوره .

عربة الفول خلف المبنى يتجمع حولها البعض من الموظفين والعمال ، يحمل الموظفون أطباقهم وأرغفة العيش إلى طاولة خشبية ، يقفون بامتدادها ، ويظل العمال عند العربة . عيناه فى طبقه مستمتعا بالرائحة والبخار الساخن، وعاودته الفكرة ، تلك اللحظات وهو يختطف نظرة للوجوه أمامه والبخار يتصاعد رقيقا من الأطباق نحوها . كم من فكرة جاءته وذهبت ، غير أن هذه الفكرة من دونها تعاوده فى إلحاح ، حتى كانت مرة قال لنفسه وهو يغادر عربة الفول " ما أبسطها . مثل كل الأفكار الكبيرة " .

مكتبه فى ركن القاعة حيث يتجمع عشرة موظفين ، كان شاردا يتأمل فكرته . مجرد بعض الأوراق يعدّها وينتهى الأمر . لديه ما يكفى من الخبرة ليجهّزها بدقة . الخطوة الأولى ، دائما ما يتردد فى القيام بها . بعدها لا يوقفه شىء .

ولم لا يبدأ ؟ .

مظروف يضع به بعض أوراق بيضاء عليها شعار المديرية . وختم النسر . لديه واحد قديم أرادوا أن يعدموه من زمن لدى وصول ختم جديد واستطاع أن يخفيه ، لا يدرى ساعتها لم أراد أن يقتنيه ، ربما لما يمثله من قوة . عثر عليه وسط كراكيب فى قاع الدرج ، دفع به مع الختامة إلى

الظـــرف . سيـأخذه لدى انصـرافه إلى البيت ، وهناك يرتّب مشروعه فى هدوء .

جلس خـامـلاً . قـال أنه لن يفكر فى الأمر حـتى يصل إلى حجـرته . هو يجيد تقليد كافة توقيعات من يحتاجهم من مسئولين بما فى ذلك الوزير . درب يده فى أوقات فراغه بالمكتب من قبيل التسلية . مجرد أن يأتى مسئول جديد ويرى توقيعه على أوراق أمامه حتى يسعى إلى تقليده . يضع ورقة من الشفاف فوق التوقيع ويرسمه مرة وأخرى . واحد فقط لم يحاول أن يقلد توقيـعه . رئيس قسم شئون العـاملين . الرجل ينفـر منه ، ويعلن عن نفوره بحركات من يده وبتقاطيع وجهه . يخلع سترته بمجرد دخوله المكتب ويعلقها على شماعة بجواره ، ويظل بصديرى مفتوح يكشف عن قميصه الناصع البياض والكرافتة التى يغيرها كل يوم. فى المرات التى يدخل فيـها لمكتبه لتوقيع بعض الأوراق يشير إليه بيده أن يتركها على المكتب ويمضى، لا يرفع رأسه نحوه ، مجرد اشارة من يده ، وفص خـاتم باصبعها الصغير بلون أرجوانى يتألق فى مسار الضوء.

التقى به مرة فى الطرقة . أوقفه . كان ينظر بقرف إلى البالطو . من فوق لتحت . ثم سأله :

– من أين اشتريته ؟

– لا أذكر . كان ذلك من زمن .

– آه . وزمن طويل .

ومضى مبتعدا .

لم يتحمس يوما لتقليد توقيعه . هو لا يبادله النفور . فقط لم يتحمس ، يلمح توقيعه على كثير من الأوراق ولا يتوقف عنده . توقيع عادى . مثل آلاف من التوقيعات التى يراها ولا تثير لديه رغبة فى محاكاتها . والآن سيكون

بحاجة إليه فى مشروعه. سحب صورة من قرار إدارى يحمل توقيعه من ملف أمامه ودسّه فى المظروف الذى سيأخذه إلى البيت . عشر دقائق ويتقنه . غداً الجمعة . يتفرغ لإعداد الأوراق المطلوبة تأخذ مسارها يوم السبت . ويمر لدى خروجه على محلات الأثاث المستعمل فى العتبة. يشترى مكتبا ومقعدا وآلة كاتبة . سيكون بحاجة إليها . حتى لو اقتضى الأمر أن يشترى واحدة جديدة. قسم مراجعة الحسابات . نهاية المطاف لكل نشاط مالى بالمديرية . الكلمة الأخيرة ، ويُستخرج الشيك بالمستحقات ، المرفقات التى عانت طويلا ، وتم تداولها فى مكاتب عديدة حتى تم تحرير الشيك ، مذكرات وقرارات وخلافه ، توضع فى ملف يأخذ طريقه إلى قسم الحفظ حيث تتعفن هناك . ومن يسأل عنها بعد ذلك ؟ وإذا ما حدثت مشكلة فدائما ما يعودون إلى المراجع المختص يستفسرون منه ، وسيكون موجودا ليجيب على استفساراتهم ، أو حتى ليتظاهر بالنزول إلى قسم الحفظ للاطلاع على الملف الذى لا وجود له . مركز شرطة الخالدية ، هكذا سيكون اسمه . مدينة صغيرة بالوجه القبلى . أسماء البلاد هناك كثيرة ، ولا يتذكرها أحد . الخالدية . اسم قريب من الأسماء المتداولة عندهم . ومن يخطر له أنه مركز شرطة وهمى . وأنه لا وجود أيضا للمدينة . المرفقات يعدّها غدا . مذكرة شئون العاملين . قرار الوزير . وكشف رواتب العاملين بالمركز . ربما يستطيع أن يستغنى عن كتابة مذكرة شئون العاملين فهى عادة تفضل أن تحتفظ بمذكراتها لديها ، وتكتفى بتوقيع الموظف المسئول على استمارة الصرف ، وبالتالى لن يكون عليه تقليد توقيع رئيس القسم . سيكتفى بقرار الوزير

"بالرجوع إلى القوانين المختصة . ولصالح العمل . وبموجب السلطة المخولة لنا . قررنا انشاء مركز شرطة بمدينة الخالدية ."

الجمعة مساء . كان قد انتهى من اعداد الأوراق المطلوبة ووقف مستندا إلى سور السطح ينظر إلى الأفق المشوب بحمرة الغروب ، يحاول أن يتخيل مدينته التى خرجت إلى الوجود . ستكون على ضفتى النيل . الخالدية . اسم جميل . ومركز الشرطة بلون أبيض . من دورين . فيلا قديمة جرى ترميمها . مستأجرة . القيمة الايجارية تُدفع مرة كل عام . كم تبلغ ؟. سيفكر بذلك فيما بعد . كشف رواتب العاملين بالمركز مازال مفرودا على المكتب بحجرته . ينقصه شىء صغير لم ينتبه له وقت التخطيط . مندوب الصرف . يُستخرج الشيك باسمه ، ويصرفه بنفسه من البنك ، فلا يجوز تظهير شيك الرواتب وما فى حكمها ، ويُفترض أنه سيقوم بتسليم الرواتب للعاملين بالمركز ، ويوقعون فى الكشف أمامه بما يفيد استلامها . المندوب بالطبع موظف بالمركز، واسمه فى الكشف أيضا . من ؟ استبعد زملاءه فى المديرية. لابد أن يكون جاهلا بالأمور المالية ويصدّق ما يرويه له . من ؟ تذكر واحدا عرفه بالمقهى . يونس . له اسم أحد الأنبياء وليس له سمتهم . ابتسم عائدا إلى حجرته .

أحيانا يذهب إلى مقهى فى شارع جانبى هادىء ، يأخذ ركنا يدخن الشيشة ويشرب الشاى ويرقب الزبائن فى ضجتهم المعتادة ، سرعان ما ينتابه السأم فيمضى .

ويوما جاء من جلس بجواره ، لم يكن بجواره تماما ، كان يفصل بينهما مقعد. وبعد مرات جلس بجواره مباشرة ، بل ارتكز أيضا بكوعه إلى المنضدة الصغيرة ، وكان كوب شايه لا يزال ممتلئا فوقها ، وراقب بطرف عينه الكوب وقد اهتز قليلا .

قال إن اسمه يونس .

هو وكأنما لم يسمع ، ما كاد ينتهى من كوبه حتى نهض مغادرا .

واستمر يونس يأتى إلى منضدته ، حتى جاء يوم وحكى عن الظروف الصعبة التى يعيشها . موظف صغير بأرشيف وزارة الاسكان . مرتبه لا يكفى وجبتين فى اليوم من العيش والفول المدمس هو وأسرته . ما يفزعه أن يمرض ولد من أولاده الثلاثة . ساعتها لا يعرف ماذا يفعل . امرأته بدأت تعمل . تنظف البيوت . ثلاث مرات فى الأسبوع . هى التى عاشت طول حياتها معززة ومحترمة فى بيتها ، وكان مرتبه يكفيهم، ويأكلون الفاكهة ، ويشترون ملابس جديدة من المحلات ، الآن يشترونها مستعملة من فوق العربات ، وأحيانا تأتى بها امرأته من البيوت التى تعمل بها .

يصمت قليلا ويدير وجهه جانبا :

– وبقايا طعام أيضا .

من كان يصدق أنه سيأتى يوم وينتظر هذه البقايا . وحين تعود بيد فارغة يكون يوم نكد على الجميع . لا يفهم ما جرى وغيّر الأحوال . ما تحصل عليه امرأته يسعف . مصاريف الأولاد . المدارس والكتب .

يصمت مرة أخرى مطرقا .

ما يحز فى نفسه خروج امرأته للعمل فى البيوت . تلبس مثل الشغالات . الجلباب وبنطلون من بيجامة قديمة له تحته ، والشبشب وايشارب حول رأسها .

- طبعا لن تذهب بالفستان والحذاء . غير معقول . وبدأ لسانها يفلت بكلام مثل كلامهن . حتى حركات يديها .

كأن لا يرأك مصرقاً .

قال أنه يبحث عن عمل بعد الظهر . ربما تتحسن الأمور . وسأله عن عمله ؟

هو لا يعطى معلومات عن نفسه لأحد . قال إنه يعمل فى المحافظة .

- المحافظة ؟

يرمقه بعينيه الذابلتين ويسأل :

- وما عملك بها ؟

- يعنى .

اكتفى بإجابته . دس يديه بين ركبتبه وأحنى كتفيه .

سأله بعد وقت ان كان يستطيع أن يجد له عملا عندهم . المحافظة تسهر . يصدف أن يمر أمامها ليلا ويرى نوافذها مضاءة، وخيالات تتحرك خلف زجاجها . يستطيع أن يعمل أربع أو خمس ساعات ، أى عمل . حتى لو يعمل لهم الشاى والقهوة . فى بوفيه مثلا .

رافقه مرات فى العودة . كان يشير إلى مدخل حارة :

- أسكن هنا . البيت الرابع على اليمين . الدور الأرضى .

ويصر على مواصلة السير معه حتى بيته . هو لا يتحمس لذلك . أن يراه ذات يوم يدق باب حجرته . يتركه فى شيء من الحدة ويمضى .

هو الشخص المناسب . لا يعرف باقى اسمه . والأوراق سيسلمها غدا إلى رئيسه مع كشوف مرتبات مراكز وأقسام شرطة أخرى . لن يتحمل الانتظار أياما حتى يلتقى بهذا اليونس فى المقهى . يعرف حارته، وربما البيت ويسأل عنه . إن لم يوافق يبحث عن غيره . سيوافق طبعا .

لبس البالطو ونزل السلم .

خرج يونس على ندائه . وقف على عتبة البيت ينظر إليه متعجبا . كان حافيا، ببنطلون البيجاما وفانلة بنصف كم . سار وراءه إلى داخل البيت . بقايا حصيرة وسط الصالة الضيقة . أربعة مقاعد فوتيه تدلت أحشاؤها إلى الأرض وألواح خشبية صغيرة على مقعدة كل منها . جاء يونس بشلتة من مكان ما وضعها على أحد المقاعد . لمح بعد جلوسه أولاده الثلاثة يقفون بمدخل حجرة ينظرون إليه . بينهم بنت فى الثانية عشرة ، ملا بسهم نظيفة ، وشباشب فى أقدامهم . يعتنى بأولاده . مؤشر طيب .

يونس يعتذر موضحا أن امرأته لا تزال فى عملها . على وش حضور . نظرة خاطفة إلى أولاده ، يختفون داخل الحجرة ويغلقون بابها . هو مستمتع بمجيئه وبما سيقوله ويراه . تخيله خلال الطريق . قال :

– سألتنى من فترة أن أبحث لك عن عمل .

– آه .

خرجت كالصرخة .

– أنت موظف بوزارة . ولا يليق أن تعمل ساعيا . قهوة وشاى .

انكمش يونس ثانية فى مقعده ويداه بين ركبتيه .

– وجاءت فرصة . مؤقتة . ويمكن ان تدوم .

صمت قليلا ثم قال :

– مندوب صرف . الراتب الشهرى خمسمائة جنيه .

يونس فى جلسته لم يتحرك . مرهفا أذنه . ينتظر على ما يبدو أن يسمع كلاما آخر .

– تقبلها ؟

– ما هى التى أقبلها ؟

- الوظيفة . مندوب الصرف .

- مندوب صرف . أنا ؟

صوته يعلو . به نبرة احتجاج ضعيفة وكأنه ثم يقرر بعد إن كان الآخر يتلاعب به .

شرح له الأمر . موقع عمل تابع للمحافظة . تشرف عليه جهة أجنبية . رواتبهم كبيرة . المحافظة تعد كشف رواتب قوة العمل المصرية . مندوب الصرف مرض فجأة . تُجرى له الآن جراحة فى المستشفى . حالته لا تطمئن . من يعلم . العمل لا يتوقف . حكاية ملفقة ، غير أنه وهو يحكيها بدت مقنعة .

يونس أثناء كلامه زحف فى قعدته إلى حافة المقعد . جذعه منتصب فى شدة. يغمغم :

- مندوب صرف ومرتبه خمسمائة . مؤهل متوسط مثلى . ومرتبى بعد خمسة عشر عاما مائة وعشرون جنيها.

- آه . جهات أجنبية .

- وسأحصل على نفس الراتب . خمسمائة .

- آه . غير المكافآت من وقت لآخر .

- مكافآت ؟

- كل كشف صرف سيكون اسمك به كمندوب . فيما عدا المشتريات والاصلاحات .

- وعندما يُشفى المندوب الأصلى ؟

- ساعتها إن اقتنعوا بك يمكن أن يسندوا إليك موقعا آخر .

- وعملى فى وزارة الاسكان ؟

– هذا ما جعلنى أحضر لمناقشتك . فأنت لن تضحى بمدة خدمتك الطويلة ومعاش شيخوختك . خاصة وأنه لن يكون لك معاش كمندوب صرف . عملك الجديد مدته عشر دقائق . تصحبنى للبنك . تصرف الشيك . وتأخذ مكافأتك وتوقع على الكشف بما يفيد استلامك المكافأة . وأحمل أنا حقيبة النقود لأسلمها مع الكشف لمسئول الموقع الذى سيأتى لمكتبى . ومن هنا لابد من التكتم . فلا يجوز وأنت تعرف أن تقبل عملا بخلاف وظيفتك . بعد أيام سيصرف شيك . إذا أردت ..

– ولم لا تأخذ الوظيفة لك ؟ خمسمائة جنيه أنت فى حاجة إليها .

كان ينظر فى هذه اللحظة إلى ياقة البالطو المهترئة .

– وما أدراك . أنا فى موقع آخر من زمن . لا تنظر إلى ملابسى . عندى الكثير . لم أغير من سلوكى حتى لا ألفت الأنظار . أحافظ على عملى الأصلى .

– وأين هو عملك الأصلى ؟

– فى وزارة ما .

– قلت لى أنه فى المحافظة .

– هذا ما قلته لك .

وافق يونس أخيرا . وأعطاه اسمه بالكامل . وثلاثة نماذج من توقيعه لابلاغها للبنك . وخرج . الآن اكتملت الأوراق . مأمور المركز برتبة مقدم . ومعاون مباحث برتبة رائد . وهناك نقيب . وملازم أول وثانى . وضابط مباحث برتبة ملازم أول . وصول ممتاز . وصول درجة أولى . وثانية . وثالثة . وأربعة رقباء . وسبعة عريف . وعشرون جندى من الأمن المركزى . وستة كتبة مدنى منهم مندوب الصرف . مجموع كشف الرواتب خمسة وعشرون ألفا ومائتان وأربعة وثلاثون جنيها .

وقف لحظة ينظر إلى الكشف على المكتب . الآن أصـبح لهم وجـود . والمدينة أيضا . خرج إلى السطح يمشى متمهلا .

لم يستغرق صرف الشيك أكثر من ربع ساعة . كان يونس ينتظره أمام البنك، يلبس سترة معقولة . وقف بجواره أمام الصراف باعتبار أنه مرافق له . أخذ منه الحقيبة الصغيرة وأعطاه الخمسمائة جنيه ، طول الوقت ويونس يحدق فى وجهه متسائلا .

أشار لتاكسى ، واصطحب يونس ليوصله إلى وزارته . بعدها ذهب إلى بنك آخر حيث فتح حسابا باسمه أودع به النقود .

لا شيء تغير في حياته . فقط كيس فاكهة يحمله في يده من وقت لآخر لدى عودته من العمل . يضعه في ركن الحجرة . وأحيانا ينساه ، ينتبه إليه حين يفوح عفن الفاكهة . فيرمي به إلى الخرابة خلف البيت .

حسابه في البنك يتضخم من شهر لآخر . فتح حسابا في أربعة بنوك أخرى حتى لا يلفت الأنظار إليه .

أمسياته فيما عدا المرات التي يذهب فيها إلى المقهى يقضيها مستلقيا بفراشه ، أو واقفا بالسطح مستندا إلى السور . يسمح له المكان المرتفع أن يرى لمسافات بعيدة .

يخرج من كسله حين يقترب موعد تحرير كشف الرواتب . يحاول قبل أن يجلس إلى المكتب أن يتخيل المدينة وناسها ، ومركز الشرطة وحركة العاملين به . لا يسعفه خياله. تظل الصورة قاصرة على مبنى المركز الأبيض ، لا حركة أمامه أو داخله . هو بسبيله أن يصدر قرارات بمكافآت وجزاءات حتى يعطى نشاطا للمركز. كيف والصورة غائبة عنه ؟

لبس البالطو فوق البيجامة وخرج .

محل اصلاح موبيليا رآه في مكان قريب . أين ؟ عثر عليه أخيرا .

لوح أبلكاش طوله متران وعرضه متر . وحوله اطار .

– لو أعطيته لونا رماديا غير لامع .

– فيم تريده ؟

- ربما صورة .

حمله بعد أن جف اللون ومضى . اشترى فى طريقه كمية كبيرة من الصلصال بألوان مختلفة .

وضع اللوح فوق المكتب . ماكيت للمدينة . الخالدية . عنده الوقت . والصلصال . لن يخرج من حجرته حتى يراها أمامه بناسها وحركتها ، ومركز الشرطة أيضا .

كوب شاى . لا مانع . يتمايل وهو يمضى إلى المطبخ ليعد كوب الشاى ، ويدندن بلحن ما .

والآن . النهر أولا . خط رفيع من الصلصال البنى يتعرج خفيفا يقسم المدينة إلى شطرين . مثل كل مدن الصعيد . البر الثانى ببنائه الحديث . شوارع واسعة مستقيمة . أعمدة نور متقاربة . إضاءة قوية تحيل الليل نهارا . فيلات من دورين ، وأخرى من دور . حولها أشجار قصيرة ، غالبا ليمون ، وأحيانا ورود ، الياسمين مثلا . عطره هنا وهناك . قصور بسلالم رخام عريضة وممشى يكسوه حصى ملون . شرفات عريضة حيث يحلو تناول الفطور ، وتقف سيدة القصر . عادة ما تكون فى منتصف العمر . حين يتقدم بها العمر ترحل إلى العاصمة لتقيم فى شقة . سيدة القصر فى وقفتها من حين لآخر ، تلبس بلوزة بحمالات ، وربما ما تزال بقميص النوم ، كتفاها جميلتان، تنادى بصوت منغم يترامى إلى خارج الأسوار ، ترد خادمة معها الابنة الصغيرة على الأرجوحة فى الحديقة . تتبادلان كلاما . هكذا يكون البشر . أربع عوامات فى النهر . لا مانع . يكفى أربع . تسلية جانبية ، يفترض أن لا تعلم بها سيدات القصور والفيلات.

لعب ورق . أنفاس ساخنة . وربما فتيات صغيرات . مزاج خاص يتم فى الخفاء . ليسوا جميعا . لا بد أن أكون عادلا . محايدا . هناك أمزجة

أخرى ، تمارس نشاطها علنا . وهناك آخرون بلا مزاج ، مجرد حياة عائلية بلا مشاكل ، هدوء . وما العيب فى الفتيات الصغيرات والخمر والمخدرات ، هم هناك يضعون ما شاءوا من قوانين ، تمنع وتجيز ، سنرى ، رغم حيادى ربما أنحاز قليلا . البر الثانى يسكنه رجال الأعمال وكبار التجار وأصحاب المناصب الكبيرة فى السلطة . بعض الشقق من إياها ، لا تخلو مدينة منها . شقتان. نجعلها ثلاث . ومن يستخدمها ؟ من يرغب عنده المكان الخاص والقدرة على الانفاق ، ربما غير ذلك . نوع آخر . سكان الشقق مثلا . منهم من يريد أن يفعلها ولو مرة فى حياته ، حتى لو سرق شيئا من مصاغ امرأته. والزوار ، والعابرون . لا بأس من وجودها . الشقق الثلاث تملكها امرأة . سماتها ؟ . سنأتى إلى ذلك فيما بعد . يخلق ذلك جوا مثيرا . مواقف ساخنة . كيف تحتمل الحياة بدون احتكاك . مركز الشرطة هنا _ للمرة الأولى يكتشف رشاقة أصابعه وهى تضغط قطع الصلصال، تلينها وتشكلها فى سرعة _ فى البر الثانى . سكانه مستهدفون دائما . مكانه غير بعيد عن شاطىء النهر ، ويواجه البر القديم فى الضفة الأخرى . فيلا قديمة من دورين . لونها ابيض منطفىء . لافتة على الواجهة . مركز شرطة الخالدية . ثلاثة لنشات راسية يحرسها جندى . لا مانع من دوريات فى النهر . ملحق لكشف الرواتب ، سائقو لنشات . نشاط مستجد استلزمه الأمن . ست سيارات لمباشرة المهام . واحدة مخصصة لتنقلات المأمور . وواحدة نصف نقل مصفوفة فى الجراج المسقوف بالخشب والجريد خلف المركز . آه نسينا الكازينو . اثنان . واحد على الشاطىء . وآخر على نفس الشاطىء . غير بعيد . ومحلات سوبر ماركت كبيرة ، يتجولون داخلها ، يدفعون أمامهم عربات صغيرة . محلات أخرى . ملابس . موبيليا . كوافير . أزهار وورود . محلات كثيرة . أهم ما يميز البر الثانى . يأتيها زبائن من البلاد المجاورة .

والآن نعبر النهر إلى الضفة الأخرى . كوب شاى أولا . الوقت بعد منتصف الليل لم يسهر من قبل حتى هذه الساعة . وجع يسرى فى ظهره من أنكفائه على المكتب . كان واقفا ينظر إلى الماكيت ، وكان راضيا . عنده ما يكفى من طين الصلصال للضفة الأخرى . لو تبقى شىء يمكنه أن يضيف ضاحية أو ضاحيتين . ظريفة هذه الضواحى. تنأى بعيدا . لها مذاق خاص . سار متمهلا على السطح . الأضواء على مدى البصر انطفأ الكثير منها ، وهدأت الأصوات الزاعقة . كل إلى مأواه . فكرة المأوى . تطورت من النوم فى العراء إلى الكهوف . ثم الأكواخ حتى وصلت إلى العمارات الشاهقة . يريد الواحد أن يكون آمنا أثناء نومه . لا يُؤخذ على غفلة . حتى العمارات الشاهقة وضعوا لها أجهزة انذار وأبواب أوتوماتيكية . وشبك من حديد على النوافذ . عاد إلى مقعده. وأين كنا ؟ البر القديم . منشأ المدينة . عليه غبار السنين الطويلة . وجروح وندوب وكدمات لا تحصى . رأى الكثير . ثمة كوبرى يصل الضفتين . كوبرى واسع مضىء . يمكن فتحه أيضا . الحجة فى ذلك مرور السفن الشراعية . هذا ما يقال . مع أن ارتفاعه يسمح بمرور أى شراع. الهدف الحقيقى فتح الكوبرى وقت الاضطرابات . عزل كل من الضفتين عن الأخرى . هكذا يا حضرة المأمور ترى أننى جهزت لك المكان بما يسهل لك أداء عملك . والخيار لك . البر الثانى مستهدف دائما . به ما به من ثراء وترف . البر القديم مكدس . بؤر ملتهبة . ما أسهل أن يشتعل . آه لن ننسى المعدية القديمة . وسيلة العبور قبل انشاء الكوبرى . راسية غير بعيدة عنه . فقدت بهاءها أصبحت بلون الطين . مائلة بجنبها على الشاطىء . تعشش فيها فئران ضخمة . البيوت هناك متهالكة تكاد تتلاصق . وأسطح مهشمة . رغم السنين وما رأته من محن مازالت

متماسكة . حوارى مسدودة ، وأخرى تفضى إلى بيوت أبوابها مفتوحة على سعتها تؤدى إلى حارة فى الجانب الآخر ، وكأنها ممر . ناسها على الجانبين ، فى حياتهم اليومية . طبيخ . غسيل وزعيق وخلافه . لا يلتفتون إلى المارة ولا المارة يلتفتون إليهم. ستدخلها يوما بعساكر دوريتك . الدورية المعتادة . وسيكون الوقت ليلا، وستجدهم نائمين على الجانبين ، كل جانب يفرد بطانيتين على حبل مشدود تسترانهم أثناء النوم . ولمبة بفتيلة فى كوة تنير للعابرين . كدت تتراجع وقد خشيت أن يكون كمينا . غير أن العساكر كانوا قد دخلوا وراءك وسيكون التراجع مصحوبا بضجة أنت لا تريدها . واطمأن قلبك حين رأيت الحارة الأخرى فى مواجهتك خلال الباب المفتوح مضيئة بأنوار النجوم . وكانت خالية تماما . وأبواب وشبابيك البيوت بها مغلقة ، وقطط تلعب فى مرح ، وترى أقداما وسيقانا وأذرعا خارجة من تحت طرف البطاطين المشدودة . أنت حريص ألا يدوسها جوادك . الدكاكين كثيرة . منها ما هو أشبه بالشقوق فى الجدران . ومقاهى تسهر للصباح . وأكشاك صفت أمامها مقاعد بديلا عن المقاهى والمطاعم . مدارس . منها الثانوى . وثانوى أزهرى. وثانوى بنات . ومقام لشيخ جليل كانوا يتبركون به ثم أهملوه . محطة سكة حديد وقضبان مهجورة بعد أن نقلوا المحطة للبر الثانى ، وظل مبنى المحطة القديمة على وعد بتسيير قطار إليها . فى الخلف تمتد الأراضى الزراعية الواسعة . اللون الأخضر الزاهى . وزرائب متناثرة ، وترعة . وقنوات مياه . ومصنعان . واحد للنسيج . وآخر للأسمنت . غباره يحلق فوق البيوت ، أكثرهم مصاب بمرض الصدر . لابأس . الحياة لا تخلو من متاعب. والآن وقد اكتمل الماكيت .

وقف يمسح يديه فى فوطة صغيرة . غبشة الفجر تغمر السطح . تتسلل عبر باب الحجرة المفتوح . الخالدية . لافتة تحمل الاسم . أين ؟ مبنى المحطة القديم . أرى صباحا واحدا بها وأستريح . تشرق الشمس. البر القديم يضج بالحركة والأصوات . امتلأت الحوارى والشوارع بالناس . تسرب أكثرهم للغيطان والمصنعين والمدارس . ميكروباصات محملة تتحرك مغادرة مواقفها . البعض يسير متجها إلى الكوبرى فى طريقه إلى البر الثانى الذى لايزال فى رقاده . أغلبهم فتيات ونساء يعملن فى البيوت هناك .

الآن أستطيع أن أراها ، ومركز الشرطة أيضا .

خرج ...

له أكثـــر من أسبـوعين لم يذهب إلى المقـهى . قـال أمـشى قليـلا وأرى الناس .

عصا صغيرة من الأبنوس بلون أسود ، اشتراها من بائع فى الشارع منذ زمن ونسيها . رآها صدفة تحت السرير ، وضعها تحت إبطه.

جلس فى ركنه بالمقهى . بعد قليل جاء يونس . دخل فرحاً بنفسه وبالدنيا . صاح مهللا :

- أخيراً أتيت . وأقول لنفسى أين ذهب .

أمسك يده بين يديه وهزها فى حرارة . جلس على المقعد بجواره . يلبس بدلة زرقاء جديدة وكرافتة زاهية الألوان ، وقميصا ورديا ومنديل من نفس اللون يطل من جيب السترة العلوى.

أخرج علبة سجائر مارلبورو وولاعة وضعهما على المنضدة .

- لم أرك تدخن من قبل .

- قلت أنوقها . غيبة طويلة . لو عرفت مسكنك كنت أتيت لك.

- وأخبارك ؟.

- تمام التمام .

جاء الجرسون بالطلبات . غمغم مداعبا يونس كعادته :

-من أعطاك يعطينا يا عم يونس .

ابتسم له يونس فى مودة .

– وفى عملك . ماذا قالوا حين رأوا ملابسك الجديدة؟.

– ولا حاجة . قلت لهم إنني عملت جمعية وقبضتها أول واحد . ستتركني أحاسب على المشروبات هذه المرة.

أومأ صامتا ، واخذ نفسا طويلا من الشيشة .انحنى يونس وثبت بظفره جمرة كادت تسقط من الحجر . قال :

-استأجرنا شقة جديدة.

سكت متحاشيا النظر إليه . قال :

– أردت أن أخبرك قبلها . ربما يكون لك رأى آخر . وأتيت المقهى كل ليلة ولم أجدك.

سكت مرة أخرى . عيناه على الجمرات بحجر الشيشة تتوهج وتهدأ :

– قلت نوسع على أنفسنا قليلا . والبنت كبرت . فى حاجة لحجرة وحدها . والولدان حجرة أخرى . نصعد إلى وش الدنيا . من الدور الأرضى إلى الثالث . ومن الحارة للشارع الرئيسى . وكله بالقسط . لو رأيت البنت . تنط من الفرحة . لها دولاب ابيض بضلفتين . وسرير أبيض . وتسريحة صغيرة نفس اللون . ترتب ملابسها . وتعلق الصور على الجدران . صور ممثلين وممثلات . وأمها تقول لم تجدى غير هذه الصور . وتلفزيون ملون . كان عندنا واحد أبيض وأسود . زهقنا من إصلاحه . أعطيناه للبواب .

– وامرأتك ؟.

– قلت لها إن مرتبي زاد . أضافوا إليه بدلات وغلاء المعيشة . توقفتْ عن العمل . كانت تريد أن تواصل . تقول زيادة خير وأنا رفضت . قلت لها إن ربنا فتحها علينا . ما يكفينا وزيادة . ومكانك هنا . وسبحان الله. خسّت للنص. ودوالى فى ساقيها . ووجهها تغير لونه . لم تعد كما كانت.

– وتركتَ الشقة القديمة ؟.

– لم اتركها . إيجار قديم . جنيهان . يعنى . قلت للزمن . بفرشها وكل ما كان فيها . من يعلم . يأتى وقت أريد أن اختلى بنفسي وأفكر على راحتى . أتأمل فى أحوال الدنيا . دوشة الأولاد فى البيت لا تتوقف . التلفزيون بأعلى صوت . والكاسيت بأعلى صوت . لا تستطيع بعد أن أعطيتهم أن تزجرهم .

سكت . ضحك فجأة . احمر وجهه خفيفا :

– لا اخفى عليك . فيه واحدة . أنت صاحبى وفضلك كبير . لماذا اخفى عنك . آه واحدة . تسكن فى البيت القديم . مطلقة . كانت تناوشنى وأنا أتغافل . زوجها ترك لها الشقة مقابل أن تترك له الولد . هى وامرأتى لا يستريحان لبعضهما .امرأتى كانت تقول أن زوجها لم يطلقها من قليل . بعد ما بلغه من حكايات عنها . وهى تقول عن امرأتى . قالت ذلك بعد أن عرفتها . ناشفة وممصوصة ما يعجبك فيها . لا يرضى أي رجل فى الدنيا أن ينام معها .عظمها سيوجعه طول الوقت . آه والله تقول هذا الكلام . وغيره . إنما قعدتها حلوة . أول مرة رأتني داخلا البيت بعد أن أخليناه . كانت أمامي . التفتت وقالت . طيب . بدل ما عينك تزحف على ظهرى اطلع . وأنا قلت لها لأ انزلي أنت . هزت كتفها وطلعت لشقتها . يوم والتانى ونزلتْ . آه نزلتْ .

سكتَ متطلعا إليه . وقال :

– يضايقك كلامى ؟ .

وضحك . هز رأسه خفيفا :

– يعنى !

– أبدا . الحكاية ظريفة . اكمل .

– آه . كنت ذاهبا للشقة أحمل كيس خوخ فى يدى . ما أن فتحت الباب حتى كانت ورائى تطل من فوق كتفى وتقول :

– وتركتم كل حاجة . السرير والدولاب . وترابيزة الأكل والبوتاجاز. أحسن أنكم تركتموها . نَفَسها انقطع . لن تتحمل الفك والنقل والتركيب . امرأتي أصلها حمارة . لا تصون الحاجة أبدا . حتى هدومها . الجلابية تكون جديدة. وتجدها آخر بهدلة عليها .

ضحك وهز رأسه وقدميه :

– تشتم امرأتي وأنا أضحك . ماذا أقول لها . الكلام يضحك ..

سكت . ثم غمغم :

– آه والله .

سكت مرة أخرى . لحظة وعاود الحكى :

– وعينها لمحت الكيس . وتسأل : وماذا فى الكيس ؟ . وتنحنى لتراه عن قرب . خوخ ؟ . أنت بقى ناوى . اقعد اغسله لك . كانت بجلباب البيت . وشبشب فى قدميها . رفعت ذيل الجلباب وهى عند الحنفية . ساقها ما شاء الله . ممتلئة وعفية . وضعت الخوخ فى طبق ومشت به إلى حجرة النوم وأنا وراءها .آهو . الواحد يشوف يوم.

التفت ينظر للزبائن فى المقهى . بدا انه لا يرى أحدا . وقال :

– حتى اسمك لم تخبرنى به ؟.

– وفيم تريده . أكمل حكايتك.

– وكيف أناديك ؟.

– نادنى سالم.

– واسمك سالم ؟.

– نادنى به وسأرد عليك .

– وحين أريدك . كيف اتصل بك ؟.

– أنا سأتصل بك . بعد يومين نصرف شيكا.

– أول الشهر ما زال بعيدا .

– أول الشهر للمرتبات . وهذا شيك مكافآت .

- فهمت . ولى فيها ؟.

- طبعا . كل شيك .مندوب الصرف اسمه دائما فى الكشف . اقل من الراتب . ثلاثمائة جنيه.

- خير وبركة.

- نمشى .

خرجا .

الشارع خف زحامه مع تقدم الليل .سارا على الرصيف متجاورين . لمح يونس عصا الأبنوس .

- لم أرها معك من قبل ؟.

- كانت عندى .

- جميلة . أشترى واحدة . من أين ؟.

- بائع كان فى الشارع . وتدفع لها ؟.

- من ؟.

- جارتك ؟.

- لم يحدث أبدا . نصف كيلو كباب آخذه معى . فاكهة . مرة خاتم . مرة حلق . النسوان تحب الهدايا . إذا كان لا يعجبك ..

- براحتك .

- تسعى للزواج منى . قالتها صريحة . تريد أن تكيد زوجها السابق . نسوان .

- وأنت ؟.

- أسايرها . جسمها حلو . تبدو مشغولا .

- آه . أرجع البيت .

- شفت ؟ بدأت أفهمك .

وافترقا.

تناول عشـــاءه واقـفا ينظر إلى الماكيت. والآن يا حـضرة المأمور تعمل قليـلا . لديك سيـارة . ولكنى أود أن أراك فوق صـهوة جواد . الجـواد بلون اسود . قواعدكم جرت بأن المأمـور لا يخرج بالدورية . الملازم يقوم بذلك . ستعطى أوامرك بان تكون هناك دوريتان . واحدة منهما بقيادتك . لا أميل أن أجعلك طيبا ولا رحيما . حتى شكلك لن يوكى بذلك وجه مدبب . أنف كالمنقار . وكتفاك محنيتان كأنما تتأهب للانقضاض . تتعامل مع لصوص وقتلة . امكر الأنواع . المهنة تغلب ، تترك بصمتها . ستكون شرسا قاسيا سريع الغضب . لا مانع من لحظات تفيض أثناءها بالعذوبة ، غير أنها ستكون محدودة ، ولن تتحملها . سرعان ما ستضيق بها .

تسكن شقة صغيرة غير بعيدة عن المركز . وماذا أيضا ؟.

مشى قليلا فى الحجرة ، ثم توقف أمام الماكيت :

أنت لا تعطيني نفسك بسهولة .لا خيار لك . ما أريده . آه . لا أميل لذلك . لن تعرف طبعا فيم أفكر.

خرج إلى السطح . مشى مرات ذهابا وإيابا . وحدق فى الأفق المعتم، ثم عاد إلى مكتبه.

تسكن شقة صغيرة . انتهينا من ذلك . زوجتك فضلت أن تظل فى العاصمة ، بحجة أن ابنها فى مدرسة أجنبية لا يتوافر مثلها فى الخالدية . وأنت رحبت بذلك فى صمت . فى المدن الإقليمية تريد أن تأخذ حريتك كاملة

فى الحركة . ما لا تعرفه أن زوجتك شكت لأقرب صاحبة لها من العيشة معك . فأنت كما قالت لا تُعاشر . وحين يصدر أمر بنقلك إلى بلدة بعيدة تكون أسعد واحدة فى الدنيا . أعتدت أن ترمى بملابسك المتسخة هنا وهناك ، والشرابات التى تفوح برائحة عفن . ما أن تشم هى الرائحة حتى تكتم أنفها بيدها وتدور فى الحجرة باحثة عنها. تعثر عليها فى أماكن لا تخطر على البال . تحت المقاعد ، وخلف مساندها ، ويكون عليها أن تنحنى بقرف لتلتقطها . عثرت عليه مرة تحت المخدة . حاولت أن تفهم ما جعلك تدسه هناك ، ولم تفهم . اضطرت يومها أن تغير ملاءة السرير وأكياس المخدات . الكلمة الحلوة لا تخرج من فمك ابدا . جهم . تكلمك وأنت شارد ، غير منتبه لها . وتلك العادة التى تثير نفورها أكثر من أى شئ آخر . وأنت أمام التليفزيون تنظر للنساء وطرف لسانك يلعق جانب شاربك. ولعابك الذى يتدفق على رقبتها وقت المضاجعة ، تحتفظ بمنديل فى يدها لتجففه من لحظة لأخرى ، وتتعجب من أنك لا تحتفظ بالمنديل فى يدك . وشعر إبطيك الكثيف ورائحته التى تثقل عليها وتثير أمعاءها .حين تختلى واحدة بأخرى تحكيان ما لا يخطر على البال . خذ هذه أيضا . أنت تعود من الخارج بعد نومها ، وتكون شربتَ ما شربتَ ، ودخنت ما دخنت. توقظها . وتطلب منها أن تخلع كل ما تلبس . هى لا ترفض . تخشى غضبك وزعيقك فى عز الليل وحدث ذلك مرات ، تخجل من عريها أمامك ، وعيناك النهمتان تجرحان حياءها . وتطلب منها بعد أن تعرت أن تمشى قليلا فى الحجرة . وتمشى . أنت فى الفراش مغطى بملاءة . حركة يدك تلعب مع نفسك . تظن أنها خافية . الشهوة تغلبك . يدك تسرع فى حركتها ، والملاءة تتماوج فوقك ، وتكاد تنحسر عنك ، تلمحك ، تكتم قرفها . أحيانا تنتهى وهى ما زالت تخطر فى الحجرة ، ويكون عليها أن تغير الملاءات التى تلوثت من إفرازاتك ، ثم ترتدى

ملابسها وتنام . وأحيانا تناديها قبل أن تنتهى ، تستلقى بجوارك . جسدها بلا رغبة ، فقد روحه . حين تجده طيعا بين يديك تظن رغبتها وقد جمحت ، ترقد منتشيا ، عيناها من فوق كتفك تتطلع إلى باب الحجرة الذى تنساه أنت عادة مفتوحا . أود لو دخل ابنك عليكما . وأكاد أدخله ثم أتراجع . موقف صعب ، ومهما فعلت وستفعل أجده كثيرا عليك . هى تحتك. لا تنتبه للباب إلا وهى تحتك . يرعبها أن يصحو ابنها من كابوس ويأتى إليكما . كثيرا ما يحدث له ذلك ، نظراتها تتخطى الباب إلى الصالة خافتة الإضاءة . تهمس لها أن تقول الكلام إياه . هى تتنحنح خفيفا ولا تقول . سرعان ما تنتهى وتستلقى لاهثا . لحظة وأخرى وتغط فى النوم ويعلو شخيرك. تنسحب فى هدوء من جوارك ، تشطف نفسها بالحمام فى تقزز ثم تمضى لتستكمل نومها بجوار ابنها . تقول لصاحبتها أن نفسها انسدت عن النوم معك أو حتى مع غيرك . ما أكثر ما حكته عنك . وأنت ولا على بالك. تأتى وتذهب نافشا ريشك ، وعندما تلتقى بصاحباتها يبتسمن لك وعيونهن على وجهك تتأمله ، وتظنه الإعجاب بك.

جنود الدورية الثلاثة أعدوا الجياد ويقفون بانتظارك أمام المركز . تخرج من مكتبك بملابسك الميرى . عصا صغيرة مكسوة بالجلد تحت إبطك وإصبعك تمسك بطرفها . هذا الوقت من الليل يزدحم المركز . الردهة الخارجية بها البعض من المصابين ، رؤوسهم ووجوههم . ودماء تلطخ ملابسهم ، معهم كثرة من أهاليهم . البعض أيضا وقفوا على جانب مع حارس . أياديهم مقيدة بالحديد. ، يندفع جندى وقد لمحك ملوحا بخيزرانته ليفسح لك طريقا .

تمتطى جوادك . الجياد مدربة على المشية الاستعراضية . خطوة شامخة . حوافرها تدق الاسفلت فى إيقاع رتيب . تنطلق فى جولتك بالبر

الثانى . تمضى وأمضى وراءك . أراك ولا ترانى . تحس فى لحظة أن هناك من يرقبك . تتلفت ثم تواصل طريقك . البر الثانى ما يزال ساهرا . الأضواء متألقة فى الشرفات . وتنفذ من خلال فتحات شيش النوافذ المغلقة . وقع حوافر الجياد يخدش السكون . تلمح رؤوسا تستدير لتنظر إليك . تشد قامتك مع سعلة خفيفة . الجنود وراءك يكاد يغلبهم النعاس من الإيقاع الرتيب . الأشجار التى تحيط بأسوار القصور والفُيلات تثير ضيقك ، تخفى المتسلل . لكنه مزاج أصحابها ، مع أن الأسوار شكلها جميل بدونها ، وتختلف من مبنى لمبنى . تعرف أن الدورية لا تمنع لصا أو قاتلا . تأتى وتذهب . لكنها تعطى طمأنينة لأصحاب البيوت . فعين الأمن ساهرة . ويوما ناقش البعض معك مسألة تعيين حراسة خاصة لبيوتهم ومحلاتهم.

وصحتَ فى غضب : أنتم تهينونني . انتظروا لحين رحيلي وافعلوا ما تريدون .

ابتساماتهم لك ناعمة وفاترة أيضا . يعرفون مداك ولا يريدون إغضابك . لم يقصّروا أبدا فى هداياهم فى المناسبات ، ودعواتهم لعشاء أو سهرة . أنت هنا بعيدا عن أسرتك . ضيفهم . غير انهم قاموا فى السر بتعيين حراسة خاصة بهم . واحد أو اثنان فى كل مبنى وسط الخدم . رأيتهم خلف البوابات الحديدية الخارجية يقومون بعمل البواب ، أو منحنين بمقصاتهم ومناجلهم وسط الحدائق الصغيرة داخل الأسوار يشذبون أشجار الورد ويسوّون أطراف الحشائش ، تعرفهم من سحنهم ونظراتهم ، وتبدو كأنك لم تفطن للأمر ، بل تقبلته بلا مبالاة .

وتقع السرقات . ثمانية عشرة حادث سرقة فى العام . معدل مرتفع ، والأسلوب واحد . كسر شيش الشرفة الخلفية مستخدمين سلما يوجد دائما فى الحديقة . المبنى خال . فُيلا أو قصر . وأحيانا شقق ، أصحابها فى

سفر ، تمسكون بالمشتبه فيهم من البر القديم . نفس الوجوه لا تتغير . يقضون ليلة أو ليلتين فى الحبس . ينالون ما ينالونه . يخرجون بعدها بوجوه متورمة . ، ورؤوس تنزف ، ويكون هناك دائما جمهرة كبيرة مرابطة دون ضجة طوال مدة الحبس أمام المركز وفى الشوارع الجانبية . لا يسألون . مفسحين للقادمين والخارجين . فقط ينتظرون . البعض منهم يقوم من قعدته ويلقى بنظره داخل المركز ويعود . فى البداية كان يدهشك وجود نسوة بينهم يلبسن الأسود ، عجائز وبينهن شابات جميلات بعودهن الطويل الرشيق . ومرة لفتت نظرك واحدة منهن . كنت تنزل السلم الخارجي ورأيتها فى مواجهتك ، ترفع بإصبعين طرف الجلباب الذى يلمس الأرض ، قدم صغيرة نظيفة داخل شبشب ، أظافرها ملونة ، وجانب من ساق مخروطة تعجبت من لمعة بشرتها ، تتمهل فى نزولك ونظرك على وجهها الجامد كالحجر. تبادلك النظرات بعينين لا تطرفان ، تغمغم لنفسك كل هذا الجمال وهنا ، وربما كانت زوجة أو أختا لنطع من المحبوسين ، يرمقونك لدى خروجك وعودتك بعيون صامتة ، وفى آخر الليل لدى ذهابك إلى البيت ، تمر من بينهم ، أجساد البعض ممددة ، استغرقوا فى النوم ، والبعض الآخر ما زال مقرفصا يقاوم النعاس ، عزاؤك أنهم دائما يعثرون على الحرس الخاص فى البيوت المنهوبة مقيدين ومكممين . وتفتش الكثير من البيوت فى البر القديم ، تعرف مقدما انك لن تعثر على شئ ، لن يحتفظ السارق بما يسرقه فى بيته وينتظرك . رغم ذلك تقتحم البيوت وتبعثر كل ما فيها وسط الصراخ والعويل . ويأتى من يهمس لك أن الحرامية جاءوا من بلدة أخرى . تقول أنه احتمال قائم ، ولا تتحمس له ، هذا يعنى اتساع رقعة البحث ولا خيط فى يدك تتبعه ، وربما كان المقصود صرف الأنظار عن البر القديم وإيقاف البطش بناسه . حيلهم كثيرة لا تنتهى ، وذقت بنفسك البعض منها . لديك

قوائم بأسماء المشتبه فيهم كلهم من هناك ، شاخ البعض منهم ورغم ذلك تمسك بهم ، يأتى الواحد أحيانا بعكازيه أو محمولا على أكتاف البعض . لا يهم . وما أدراك . وتأتى التحريات بأسماء جديدة ، وتطلق وراءهم من يراقبهم . ولا شئ . ومرة بعد أخرى تشك فى التحريات . ربما ضغائن أو تصفية حسابات . أصبحت حذرا فى تعاملك معهم . لا تأخذهم ببساطة ولا تصدق ما يبدونه من براءة : ربما تذكر الحكاية القديمة . بسببها اختفيت أسبوعا عن البلدة ، إشارة من الرئاسة فى العاصمة . ابحث عن العمرى . إبراهيم العمرى . مطلوب للتحقيق . من أهالى البلدة . مظاهرات الجوع فى العاصمة . استمرت ثلاثة أيام بلياليهم. نُهبت اغلب المحلات وتحطمت واجهاتها . وخُربت آلاف السيارات فى الشوارع ، ووصل الأمر أن رئيس البلاد أعد هليوكوبتر على سطح قصره للهرب فى أي لحظة . هنالك من رأى إبراهيم العمرى وسط الجموع ، يهتف ويحرض . شيوعى قديم . سبق اعتقاله مرتين . واسمه فى القوائم لديهم . رزمة من الكشوف تعرفها . الاسم ليس غريبا عليك . تحاول أن تتذكره . كنت أيامها ضابطا صغيرا بمباحث أمن الدولة.

تقول لمعاون المباحث الذى كان يقوم بإعداد القوة لمداهمة بيت العمرى انك ستصحبهم فأنت على ثقة من انك تعرفه ، وبمجرد أن تراه ستتذكره . وتضحك وتقول مداعبا للمعاون :

– حتى لا يدفعون إليك بشخص آخر بديلا عنه .

تمضى على رأس القوة . تعبرون الكوبري الى البر القديم . سرعان ما اخذ المارة جانب الشوارع ووقفوا فى أماكنهم . ومن شارع الى شارع حتى وصلتم الى البيت .

القوة سحبت وراءها الكثير من الاهالى . تزاحموا عن قرب ، ومنهم من صعدوا الى أسطح البيوت المطلة على الشارع . القوة أحاطت بالبيت وسدت طرفى الشارع أمامه والشارع خلفه . لا منفذ الآن للهروب .

كاد بعض أفراد القوة أن ينهالوا بعصيهم على الاهالى ليبعدوهم . منعتهم . لا مبرر لذلك . يكفى ما أثاره مجيئكم فى نفوسهم من فزع . وهو شئ مطلوب من وقت لآخر . أسلوب تثق بجدواه ، افضل من البطش الاعمى .

باب البيت مغلق . ضربه أحد الجنود بكعب بندقيته صائحا :

– إبراهيم العمرى .

الصمت الذى ساد حولك . صمت مريب . تحس بشيء من القلق . نظراتك تطوف بوجوه الاهالى . الجندى يضرب الباب مرة أخرى فى عنف .

صرير الباب . يُفتح ببطء . خرج عجوز مديد القامة . شعره الأشيب منكوش ، كان على ما يبدو فى غفوة ، طرفت عيناه حين رآكم . أنت فوق جوادك تتأمله. هو أكبر من أن يكون المطلوب . صاح معاون المباحث :

– إبراهيم العمرى .

العجوز ينظر إليه ثم الى الآخرين ، لحظات وهو لا يتحرك ، غمغم :

– ومن يريده ؟ .

– مطلوب للتحقيق .

يعود الى صمته . يتحسس شعر ذقنه النابت ونظراته تتحرك فى مهل على وجوهكم ثم تحلق وتتوقف عندك ، قال :

– أنا أبوه .

قلتَ : وأين إبراهيم ؟.

عيناه لا تزالان على وجهك . سألك :

– أنت المُخبر الجديد ؟ .

– هو .

– والآخر . أين ذهب؟.

تتعجب فى نفسك للحوار بينكما وصبرك عليه . لا تجيبه . وقال هو :

– تأتون وتذهبون . آه . دنيا .

– أين إبراهيم ؟.

– إبراهيم ؟.

التعبير الذى بدا فى عينيه ، لم تنتبه له إلا فيما بعد . أشار بامتداد ذراعه :

– هناك عند الجميزة الكبيرة قد تجدونه .

كاد يستدير ليدخل حين قال له معاون المباحث :

– لا تغادر البيت . إذا لم نجده عدنا إليك .

يرتفع صوت من بين الاهالى :

– اعرف مكانها . تعالوا .

لا يلتفت إليه أحد منكم . فالشجرة معروفة للجميع . الجميزة الوحيدة بالناحية . وعمرها طويل . وجاء ذكرها اكثر من مرة فى التحقيقات للإشارة الى مكان ما . يبعد عنها أو يقرب منها .

تمضى القوة الى الجميزة الكبيرة ، يهرول البعض أمامكم ، وباقى الجمهرة وراءكم . الشجرة على مرتفع صغير خارج البيوت ، ضخمة كثيفة الأغصان. راعى غنم يقعد فى ظلها ، أمامه أغنامه السبع ترعى الحشائش القليلة . احب مهنة الى نفسى . يتميز صاحبها بالكثير . الزهد . الحكمة. الصبر . صفاء الذهن . الصوت الشجى . وأيضا القدرة على التنبؤ. أحيانا

تصيب ، وعندها يرفع الناس من قدرهم ويبجلونهم.

تتوقفون عند الراعى . سأله المعاون عن إبراهيم العمرى ؟

الراعى رفع رأسه . كان يحفر بمطواة فى قطعة من الخشب ، يصنع أرغولا على ما يبدو ، أشار بها خلفه حيث امتدت صفوف المقابر :

– هناك . الثامن من الصف الثالث على الشمال.

تنظر إليه غير فاهم ، ثم تستوعب الأمر . رعشة الغضب التى اجتاحتك . تمسك نفسك . سألته :

– له وقت هناك ؟

– حوالى العشر سنين .

تستدير مع قوتك لتعود ، جمهرة الأهالى التى تبعتكم اختفت ، والشوارع خلت، لابد أن الخبر وصلها .

تغلق على نفسك المكتب ، وحتى بعد أن جاءوا بالعجوز ونال علقة ساخنة لم تهدأ .

وتأتى إشارة من الرئاسة ردا على إشارتك تطلب منك أن ترسل إليهم تفاصيل تحرياتك وصورة من شهادة وفاة المذكور حتى ينظر فى شطب اسمه من القوائم .

تصل بدوريتك بعد طواف الشوارع إلى رأس الكوبرى ، تتمهل ثم تقف . أنا غير بعيد عنك . تتلفت وقد أحسست بمن يرقبك ، ولا ترانى .

كل مرة تأتى يجذب انتباهك خلو الكوبرى من المارة . لاتراه خاليا إلا فى هذا الوقت من الليل ، تنبعث ذكريات قديمة . تستعيدها مترددا . هو الآن ملائم للعشاق . وكنت تراهم فى مكان آخر ، وزمن آخر ، ربما قبل أن تلتحق بالشرطة . ما أن يخلو الكوبرى حتى يظهروا ، يسيرون اثنين اثنين ، تكون ماشيا وتتمهل فى سيرك ، تحدق فيهم ووجهك صامت لا ينبىء بشىء . يمر الاثنان بك لا ينتبهان لوجودك ، كل منهما يميل على الآخر ،

يتهامسان ويضحكان دون صوت ، يده تحتوى يدها ، تلمح اليدين متراخيتين بينهما ، لا يصلان أبدا إلى نهاية الكوبرى ، يعودان قبلها بقليل ، وكأن الشوارع تذكّرهما بما حولهما .

فى فترة خطوبتك أردت أن تجرب أنت الآخر . ورأيت أن تخرج بملابسك الميرى ، يعطيك ذلك نوعا من الطمأنينة ويبعد عنك نظرات الفضول التى تثير غضبك . عروسك استقبلت الأمر بفرحة ، ما أن أمسكت يدها حتى تركتها لك ومالت عليك ، مشيتما كالآخرين ، تهمس لك وشفتاها تلمسان حلمة أذنك إنها تود أن تبوسك ، لم يسبق لها أن قالت مثل هذا الكلام . أول ما خطر لك أنها لابد جربت هذه المشية من قبل ، لا تبدو أنها أول مرة لها ، فهى تمشى كالأخريات تماما ، توشوشك بكلام لم تعد تريد أن تسمعه بعد أن أعتم رأسك . الآخرون على الكوبرى يرمقونكما خطفا أثناء سيرهم ، لم يسبق لهم رؤية بدلة ميرى فى هذا المكان .

البر القديم بالجانب الآخر . هادىء . مستغرق فى النعاس . مبعث قلقك الدائم. التحريات التى تأتى من هناك لا تطمئن . عناصر شغب لا تكف عن التحريض ، ليس فيما تفعله أو تقوله ما يوقعها فى يدك . حذرة ، وأنت أيضا حذر . تؤجل الصدام . تعرف أنه قادم. لكنك لا تتحمس لما يسمى بالضربة الوقائية ، ويوما جاءتك التحريات بأن ثمة شيئا سيحدث وربما خلال ساعات. لا تفاصيل . نوع من الغضب العام . وسخط عنيف يوشك أن يؤدى إلى انفجار عشوائى . أخطرها ، بلا عقل ، ما لديك من قوات يكفى لتسيير الأمور العادية . كان الوقت ليلا ، قبل صلاة العشاء بقليل . تطلب تعزيزات من إدارة الأمن المركزى . لهم معسكر فى الصحراء غير بعيد . لا يراه أحد ، القليلون يعرفون بوجوده . معسكراتهم تمتد مع الوادى بعيدا عن العمران .

نصف ساعة ووصلت التعزيزات . خمس عربات بصناديقها الكبيرة

المغلقة ، بداخلها مائة من الجنود بتجهيزاتهم . أخفيتهم وراء مبنى المركز ، قرفصوا هناك وأوعية الشاى تمر عليهم .

مع تقدم الليل تزداد قلقا . الصورة مبهمة . من ؟ ولماذا ؟ تعرف أن البر الثانى يستفزهم . ما يرونه ويسمعونه . غير أنه كان دائما غضبا هادئا . وتعرف أيضا من دراستك ومما حدث من قبل فى العاصمة أنه عند وقوع الانفجار فأول ما سيفعلونه الاندفاع إلى البر الثانى ، هم فى البر الثانى يعرفون هذه الحقيقة مثلك ، بعضهم بخلافك يتوارثها ، والبعض يكتسبها مع ازدهاره . وستجدهم مجهزين دائما للرحيل عندما يلوح الخطر . عندهم بيوت أخرى فى مدن أخرى . لن تكون خسارتهم كبيرة . وسرعان ما يعوضونها . ليس هذا ما يشغلهم ، إنما الجرأة على الهجوم عليهم .

فى البر القديم يتوارثون الغضب . هذه معلومة جديدة عليك . يتراكم مع الوقت . شرارة صغيرة ويحدث ما يحدث . ويسود الهدوء . ترميمات وإصلاحات . والنفوس كأنما صفت . غير أنه صفاء ظاهرى غالبا ما يعقب العنف . ما بداخلها مازال بداخلها . التراكم من جديد . كلا الجانبين . تحلو الحياة . تشابك وتباعد .

ليلتها لم تنم . تقف بمدخل المركز مرهفا أذنك ناحية البر القديم . تمشى لتقف عند رأس الكوبرى . نفس وقفتك الآن . لاشىء . البر هناك أطفأ أنواره . الوقت يقترب من منتصف الليل . لم تفهمه أبدا . حاولت وعجزت . ست أو سبع عائلات قديمة . حسب ونسب . مرتبطة بالزراعة . جيلا بعد جيل ، لم تجرب نشاطا آخر . كان لها فيما مضى كلمتها المسموعة . يحترمها الجميع . الآن لا كلمة لهم هناك ، مثلهم مثل غيرهم . ما يملكونه يكفيهم . تكلمهم عن عائدات يمكن أن يدرها استثمار آخر , وتطور الزمن ، ينصتون لك ، ويلتقطون ما يكون بجوارهم من حصى ويدحرجونه بعيدا ، ولا يعلقون بكلمة على ما تقول. الآخرون أيضا كثيرون هناك تكلمت معهم .

تحاول أن تعرف . تكتشف أنهم لا يحملون أى ضغينة للبر الثانى ، وربما هذا ما بدا لك . فإشعال النار فى قصرين بالبر الثانى وفى ليلة واحدة أمر له معناه . لا سرقة . ولا جانى . ولا أثر لشىء .

يقول واحد منهم : ربما الريح .

تحدق فى وجهه ، يقولها عن قناعة ، ويضيف :

– يحدث عندنا من يوم للثانى . شرارة . وريح . وتشتعل . تأكل النار بيتين أو ثلاثة .

تكاد تقول له إن الأمر مختلف ، فبيوتهم متلاصقة ، بها الكثير من الخشب ، وبعضها يحمل على سطحه وقودا ، حطب وكراكيب . وأغلب المواقد تترك مشتعلة سواء سهوا أو طلبا للدفء .

تنتبه وأنت تجادلهم أنه لم يحدث أبدا أن وصلت المركز أى شكوى من ناحيتهم رغم ما يقع من حوادث عندهم . عراك . إصابات كبيرة . سرقات أيضا . ولا شكوى واحدة وصلتك .

وتسأل .

ويقال لك : ليس هناك ما يستحق الشكوى .

وتلح فى السؤال : إن كانوا يحلون مشاكلهم فيما بينهم ؟

ويقال لك : آخرتها كل صاحب حق يأخذ حقه .

ويوما ذهب إلى هناك رقيب وثلاثة جنود فيما يشبه الدورية . أخذوا جولتهم ، واشتروا ما يريدون من الأسواق هناك ، ومالوا على مقهى لشرب الشاى وتدخين الجوزة قبل عبور الكوبرى . ربطوا جيادهم فى شباك المقهى ودخلوا . حجر معسل . وحجر آخر. وآخر . نصف ساعة وخرجوا ، ولا أثر للجياد . الجميع يعرف الرقيب وأفعاله. وربما يكون بلغك . كلّفته أكثر من مرة بشراء بط وحمام وتفاح ترسله إلى امرأتك فى العاصمة . يحصل على ما يريده بربع أو نصف الثمن ، وأحيانا بلا مقابل . هو بعد أن تأكد من

ضياع الجياد انفجر صارخا . كسر مقعدا وأمسك بظهره ، هدد صاحب المقهى وكل من فيه بتحطيم رؤوسهم إن لم تظهر الجياد فى خمس دقائق :

- خيل الحكومة يا أولاد الكلب .

مرت الخمس دقائق ، وبعدها دقائق أخرى طويلة . هو فى جلسته على مقعد مهدلا . وعرق غزير يسح على وجهه ، عيناه الزائغتان تروحان هنا وهناك . فى النهاية أوقفه الجنود الثلاثة وساروا به . عبروا الكوبرى وكان خاليا فى هذا الوقت من الليل . مشيتهم متعثرة . الأكياس التى بها مشترواتهم لم يحكموا إغلاقها . حبات برتقال وطماطم تتساقط منها ، البرتقال تدحرج سريعا . الطماطم بطيئة فى حركتها لم تلحق به ، كما تعرف استدارتها غير مستوية، ثم قفزت فرخة من كيس آخر . كانت مقيدة الساقين ، تضرب بجناحيها وتنط وصياحها يخدش السكون ، ولا واحد منهم التفت لينظر وراءه .

أيقظوك ليلتها من النوم . ذهبت إلى المركز والروب فوق البيجامة والخف فى قدميك ، ورأيت الأربعة العائدين يصعدون درجات السلم الخارجى . أشحت بوجهك . وكنتم فى المركز تعدون لعمل شىء . وتردد الصهيل فجأة ، ولمحتم وأنتم على بسطة السلم الخارجى الجياد الأربعة تخب خفيفا فوق الكوبرى ، تعرف طريقها إلى المركز .

تعود من وقفتك عند رأس الكوبرى ، تلقى بنظرة خلف مبنى المركز حيث جنود الأمن المركزى فى قعدتهم هناك . لمعة عيونهم فى العتمة حين استدارت إليك .

النعاس يثقل عليك . تعطى الأمر بفتح الكوبرى وتمضى إلى مكتبك ، تتمدد على الكنبة وتنام آمنا .

هو فى حجرته فوق السطح ، منحنيا على الماكيت . ينقصها قمائن الطوب فى البر القديم . وكيف نسيها ، مداخنها الطويلة ، وفوهاتها السوداء ، دفقات الدخان المتتالية .

الفجر فى الأفق . الكل نائم ، هو أيضا ، أطفأ النور وتمدد فى الفراش .

هو كابوس دون شك . يد تمسك بخناقه ، تكتم أنفاسه ، يحاول أن يتخلص منها . يرفس بقدميه . وجه المأمور يكاد يلتصق بوجهه ، صوته كالفحيح :

– الآن تخبرنى . ما يجعلك تحوم حول المركز ؟

– أى مركز ؟

– تستهبل ؟ هذا الذى تقف أمامه .

– أنا فى فراشى .

– فراشك يا ابن القحبة .

يلتفت ويرى أنه أمام المركز . كان مضيئا . لا أحد يدخل أو يخرج . القبضة خفت حول رقبته .

– وتتبعنى . أكثر من مرة أراك ورائى . وجهك الوسخ من بين كل الوجوه . والآن ستخبرنى . ما حكايتك ؟

– ولا حكاية ولا ...

– بسرعة قبل أن أهشم وجهك .

– مجرد أن أرى .

– ما هو الذى تراه ؟

– أرى ما يجرى .

– وماذا يجرى ؟

تسترخى قبضته . يحدق فى وجهه :

– وربمـــا كنت واحـدا منهم . الذين يكتـبـون فى الصـحف . وكلهـا أكاذيب".

هو لا يـــرد . قد يكون فى صمته ما ينقـذه من يده . لو ظن ولو قليلا أنه يكتب فى الصحف ربما أفلته . يستدير ليبتعد ، ثم يعود ويلكمه فى وجهه :

– لو رأيتك مرة أخرى !

هو فى فراشه . يصحو فجأة . يجد نفسه متشبثا بشباك السرير ووجهه ملتصق به . يحس ببرودة الحديد . يسترخى لاهثا . جسمه المنهك المبلل بالعرق وريقه الناشف ، يشرب من زجاجة بجوار الفراش . شمس الصباح تغمر أرض الحجرة . النافذة . نسيها مفتوحة . هو موعد يقظته .

مدخل المركز فى الصباح الباكر بعد غسله ، وقطرات ماء تنساب من جوانب درجات السلم ، تدخل مسرعا .

تسأل دون أن تتوقف عن معاون المباحث ؟

يقال لك انه ينتظر فى مكتبك .

يقف للقائك . تضع الكاب والعصا على منضدة صغيرة . تسأله :

– جهزّت القوة ؟

– كله تمام .

– أين ؟

– مدفونة جنب شجرة فى الحديقة العامة .

– ومياه الرى . ربما تسربت إليها .

– ملفوفة فى عدة أكياس بلاستيك داخل علبة صفيح .

– هى نفسها ؟

– نفسها .

– يكفى ثلاثة أفراد معك . سأعد الأوراق لحين مجيئك .

– انتظر حتى نزنها . نسيت وزنها . خمسة شهور .

– آه . المدة طالت هذه المرة . لولا أننى تذكرت فجأة .

– ما يجرى يجعل الواحد ينسى أى حاجة .

– لا تفكرنى بالبر القديم . أريد أن أنساه اليوم .

– أسبوع ونحن مشدودون . ولانهاية لهذا الوضع . ما يكاد يهدأ ونأخذ أنفاسنا . المفروض أن نحسمه .

– إذا كان عندك رأى آخر . أخبرنى .

– لو الأمر بيدى لاجتحت البر القديم . نقتلعه من جذوره .

– خطرَ هذا الرأى لغيرك .

– من ؟

– منصب كبير . قال جادا وبالحرف الواحد " ولم لا تشعل فيه النار . ويمكن تدبير ذلك ".

– وأنا معه فى الرأى .

– لا تندفع . الحرص مع مثل هذه المناصب . ما سيحدث أننى وأنت وكل من هنا سنكون أول من يُضَحى به .

– لوفكرت بهذه الطريقة فلن تفعل شيئا .

– خلينا فيما كنا فيه . متى تذهب ؟

– الآن .

نهض واقفا ، تمطى خفيفا . وسأل :

– قوة الأمن المركزى . لم أرها ؟

– أعدتها ليلة أمس .

– كنت أبقيتها يومين ثلاثة .

– تحت يدنا .

خرج المعاون .

امتطى الجواد والقوة وراءه . وساروا .

هو يتبعهم . الشمس متوهجة , ضوؤها يؤلم عينيه .

وصلوا الحديقة العامة . ربطوا جيادهم خارجها . لافتة صغيرة معلقة على بابها " مغلقة للرى " .

دخلوا . البستانى كان بالجانب الآخر وبيده خرطوم يتدفق منه الماء . رماه وأقبل مهرولا .

يتحلقون حول شجرة بطرف الحديقة . البستانى حشر نفسه بينهم :

– خير يا أفندم .

– ومن أين يأتى الخير . احضر أى شىء لنحفر هنا .

– نحفر ؟ خير .

– نفّذ الكلام .

– حاضر .

هرول مبتعدا . عاد بفأس .

– احفر هنا . جنب الجذر . بالراحة .

سرعان ما ظهر سطح العلبة الصفيح . نصف متر فى ربع .

– يا نهار أسود .

قالها البستانى متراجعا . صوت المعاون الصارم :

– أخرجها .

– جثة ؟

– جثة أيه يا حمار .

– لا تحفرون إلا عن جثث .

نال كفا على قفاه ، لم يلتفت ليرى مصدره . انحنى ورفع العلبة ، وضعها عند حذاء المعاون .

– تعمل هنا من زمن ؟

– سنتان وشوية .

– رأيت العلبة من قبل ؟

– يعلم الله ...

– تعرف ما بها ؟

– يعلم الله يا أفندم ...

– تشك فى أحد وضعها هنا ؟

– آلاف يدخلون .

– اتبعنا إلى المركز يأخذون أقوالك .

– مركز ؟ يعلم الله .

– اخرس .

– وتحجزوننى ؟

أنت والمعاون فى مكتبك . العلبة الصفيح مفتوحة فى ركن . تحضر أوراقا من دولاب معدنى صغير على يمين المكتب . تقعد أمام المعاون ، بينكما منضدة صغيرة ، تكاد رأساكما أن تتلامسا . كشف مكافآت ضبط مخدرات بمركز شرطة الخالدية . تقول :

– المحاضر أولا .

– دعنى أعدها . أحفظ الصيغة . أولا محضر إثبات . إنه فى يوم كذا شهر كذا . وبناء على معلومات وفرها مرشد سرى معلوم لنا . تم ضبط ٢ كيلو حشيش مدفونة تحت شجرة ..

توقيعات وختم .

وضع الورقة جانبا :

– ومحضر فحص . تبين لنا نحن أعضاء اللجنة المشكلة بأمر حضرة مأمور مركز الخالدية أن كمية الحشيش المضبوطة بتاريخ كذا . بموجب

محضر ضبط رقم كذا . تزن ٢ كيلو من صنف متميز . وعنيف . ماركة ما يسمى فى السوق بالأعور . ويبلغ ثمنها اثنان وثلاثون ألف جنيه . وينصح بإعدامها .

توقيعات . وختم .

وضع الورقة فوق الأخرى :

– ومحضر إعدام . انه فى يوم كذا . شهر كذا . نفس اليوم ؟

– طبعا نفس اليوم .

– قمنا نحن أعضاء اللجنة المشكلة بموجب قرار حضرة مأمور مركز شرطة الخالدية بإعدام كمية الحشيش المضبوطة بموجب محضر ضبط رقم كذا . وزنها ٢ كيلوجرام ماركة الأعور والمقدر ثمنها باثنين وثلاثين ألف جنيه . وذلك بإحراقها فى مكان خلاء بعيد عن العمران . توقيعات . وختم .

وضع الورقة فوق الأخريتين :

– والآن كشف المكافآت .

– استعن بكشف سابق .

– لا سابق ولا غيره . نصف القيمة . ستة عشر ألفا تصرف للمرشد السرى المعلوم لنا . الباقى يوزع على العاملين بالمركز حسب رواتبهم نظرا لما شارك به الجميع فى الجهد المبذول ، لم يحدث تغيير فى القوانين منذ الكشف السابق " قيمة ما يضبط من مخدرات توزع كمكافأة على قوة الضبط ومن يساهم معها ".

– ولن يحدث . اترك لى الكشف أملأه . سأعود للسابق حتى لا ننسى أحدا . خذ المحاضر اجمع عليها التوقيعات . وخذ معك الكيس ليروه . الباشكاتب يحلو له أحيانا أن يكون دقيقا . إن رغب فى تغيير صيغة أحد المحاضر دعه يفعل .

يغيب المعاون قليلا ويعود . أنت مكب على الكشف تنجزه . تسأله :

- كله تمام ؟

- تمام .

تعطيه الكشف بعد أن وقعته وختمته . يدسه مع المحاضر في مظروف .

- نرسله اليوم .

تلمح كيس المخدرات على مكتبك ، تقول مشيرا إليه :

-وهذه ؟

- سأختار لها هذه المرة مكانا بعيدا فى الصحراء .

- ستخبرنى به ؟

- طبعا .

- من الأفضل أن تغير العلبة .

- فعلا .

- والآن . نتذوقها .

تمد يدك داخل الكيس ، تخرج قطعة فى حجم نصف الكف مغلفة بالسلوفان . تشمها ، تهز رأسك مبديا إعجابك . تنزع بظفرك القليل جدا من طرفها . يتحرك به لسانك داخل فمك ، عيناك شبه مغمضتين :

-ممتاز .

تضحك ، ويضحك المعاون ، تضع القطعة فى مظروف تدسه فى جيبك . المعاون أيضا . ترمقه فى دهشة خفيفة :

- تدخن ؟

- أبدا . هدايا . تفعل الأعاجيب .

- ويقل الرصيد . يأتى يوم لا نجد ما نضبطه .

- لا تقلق . بدل القطعتين سآتيك بعشرة .

يخرج .

صاحبك هذا . معاون المباحث . نمرود . هو كما يقول يضع كل تجار الصنف فى جيبه ، التنسيق معهم أفضل كثيرا من الصدام . قدرتهم على الشر بلا حدود .

تقف خلف النافذة المغلقة ، فوقها ستارة رقيقة ، تحب أن تنظر إلى الخارج من خلالها ، وماذا ترى ؟ العجوز التى تجلس دائما فى البلكونة المواجهة وبيدها مضرب ذباب ، ما أن يصل إلى أذنها صرير نافذتك عندما تفتحها حتى تلتفت وترمقك فى ضيق يجعلك تعيد إغلاقها .

يذهب بك الخيال فى وقفتك إلى بعد باكر . سهرتك مع الحاج فوزى . تاجر الأدوات الصحية . له أكثر من محل فى مدن أخرى . العاصمة وحدها له فيها ثلاث محلات ، يأتى فى الشتاء إلى الخالدية لقضاء ثلاثة أسابيع ، يقول أن هذه الأسابيع كل أجازته ، يستريح فيها من الشغل والعائلة ، هو طبعا يأتى على فترات خلال العام ، يقضى أياما ويمضى . يحب لمة الصحاب . لم تر فى حياتك واحدا فى شهامته ورجولته ، ما من مرة قصدته فى خدمة إلا وقام بها . علاقاته واسعة . خدمات من نوع إيجاد عمل لبعض أقاربك فى دول الخليج أو فى الشركات الأجنبية ذات الأجور المرتفعة ، امرأتك نفسها وكانت تعمل مدرسة لغة فرنسية فى مدرسة خاصة ، وربما قلت له هذه المعلومة صدفة أثناء كلام معه ، فوجئت به يسألك يوما إن كنت ترغب فى نقل امرأتك من المدرسة لعمل آخر . أحد مراكز البحوث الأجنبية ، وبراتب يبلغ خمسة أضعاف راتبها فى المدرسة . وأراحك ذلك كثيرا .

يقيم سهرته بالباحة الخلفية للفيلا بجوار حمام سباحة لم يستخدم أبدا ، مكسو بسيراميك ناعم الزرقة ، يقول أنه إيطالى . تتراكم فى قاعه أوراق

شجر صفراء هشة ، يمنع الخدم من إزالتها ، يطيب له أن ينظر إليها فى قعدته . وثمة جدار مرتفع يحجب الحمام عن العين المتطفلة تغطيه لوحة بامتداد مساحته بها جياد جامحة على أهبة الوثوب بينها فتيات يخطرن فى رشاقة ، قماش خفيف ينساب على أجسامهن ، يهفهف ويشف عن سيقانهن الجميلة ، وشعورهن السوداء تتطاير خلفهن .

تذكرك اللوحة لسبب لا تدريه بالفتاة أمام المركز . شعرها الأسود وقد انزاحت عنه الطرحة ، وخصلة أفلتت ترتعش خفيفا على جانب جبهتها ، أظافر قدميها الملونة . ما أكثر الأشياء التى تذكرك بها . اعتدت أن تستدعيها قبل نومك ، تفك الطرحة عن رأسها وتنثر شعرها ، تحدق فى عينيها . نظرتها لا تلين أبدا . تغمغم قبل أن تروح فى النوم.. ربما لو التقينا مرة أخرى ؟ . تحرياتك عنها تقول إنها مدرسة فى الابتدائى ، متزوجة من قريب لها يعمل موظفا فى مصنع النسيج ، مر على زواجها عام ونصف ، يوم جاءت المركز كان شقيقها مقبوضا عليه ، من المشتبه فيهم .

يقول لك معاون المباحث ضاحكا :

– بسيطة . نأتى بها إلى المركز .

– كيف ؟

– نمسك زوجها لأى سبب فتأتى وراءه . تحكى لها وتحكى لك .

لم يعجبك الأمر أبـدا . ولا استرحت له . تحس أن لقاءكما سيأتى وحده .

الحاج فوزى حين يراك منجذبا للوحة يسألك :

– تعجبك . هه ؟

ويقول : آه . جميلة . ربما حكيت لكم من قبل حكايتها .

كل مرة ، كان يحكي مستمتعا . الرسام الذى رسمها . لا يلبس غير الشورت وتى شيرت كالح وصندل فى قدميه جاء به من مالطة . ولماذا مالطة ؟ . كان هناك لسبب لا يتذكره ، ورأى لوحة صغيرة فى محل بيع لوحات . أعجبته . نفس هذه اللوحة التى تراها . وجاءوا بالرسام . واتفقنا . ولد أبيض . نحيل . شاحب الوجه ، وشعر أشقر وسخ ينزل على كل قفاه . تذكرة بالطائرة . وتذكرة بالقطار درجة أولى مكيف ، يرفضها ويفضل الدرجة الثالثة فى قطار قشاش . مزاج . ماذا تقول له . جاء وحقيبة على ظهره ، تماما كحقائب تلاميذ المدارس ، بها كل ما يلزمه . أدوات الرسم . تى شيرت ، وغياران ، ورفض أن ينام فى غرفة داخل الفيلا . فرح بالشازلونج . هناك فى الركن . ترونه ؟ وقال هذا كل ما أريد . ينام ويأكل فوقه . وكان مجنونا بالبرتقال . يأتى على ثلاثة كيلو فى القعدة ، وحتى فى راحته وهو يمشى هنا وهناك لا تفارق البرتقالة فمه . يثقبها ويمتصها . لا يقشرها . ورفض أن نعصره له ، رمقنى مستغربا حين اقترحت عليه ذلك . ويصدف أن ينفد البرتقال . اعتدنا أن نضعه له فى سبت بجوار الشازلونج ، يتلفت حوله ، مثل طفل ضاعت لعبته. ويقتحم المطبخ باحثا . الخادمات لا يفهمن ما يقول . وهو لا يفهم ما يقلن . بعدها عرفن ما يريد . وتطلب واحدة منهن البرتقال بالتليفون من المحل . المقرر كان كيلو أو اثنين فى اليوم . فى وجوده القفص كامل كل يوم . كان متعة أن أراقبه . عندما أجد نفسى خاليا أجذب مقعدا إلى النافذة بالدور الثانى وأنظر إليه . وكنت حريصا ألا يرانى حتى لا يضطرب حاله . أسمع أن الفنان منهم لا يحب التلصص عليه . غضب . ونرفزة . وربما يشخبط اللوحة ويمضى . يعمل عاريا . آه . الشورت فقط . ليلا نهارا فوق السلم . أتيناه بكشاف قوى . الخادمات الثلاث فى الفيلا مجنونات به ، يتخفين فى مكان ما ويرقبنه ، يسارعن

بغسيل ما يرمى به من غيارات وأدوات، ويقفن جنب الشازلونج وهو يأكل ، ينتظرن أى إشارة منه . كنت أنادى مرات حين أحتاج شيئا ، وبعد أن يبح صوتى تأتى واحدة منهن :

– أيوه يا سيدى . كنا ننظف .

صغراهن . لا أذكر اسمها . أكثرهن افتتانا بالولد . تمسك بفوطة مبللة . ويكون قاعدا يستريح على الشازلونج . لا تستأذنه . ولا تقول كلمة . وحتى لو قالت لن يفهم . تنحنى فوقه تنظف جذعه المتسخ . الولد لم يستحم طول إقامته. حتى فى الصباح ، يكتفى بفوطة مبللة يمسح بها وجهه وإبطيه ، وربما رأته البنت فجاءتها الفكرة . تنظف ظهره ورقبته وصدره . الولد يستسلم لها ضاحكا . البنتان وقفتا غير بعيد خائفتان ، يداهما على صدريهما ولا تبتعدان. يوم والثانى وقررت البنت أن تهب الولد عذريتها ، البنتان حاولتا أن تثنياها عما تنوى بلا فائدة . حين رأيتا تصميمها قامتا بتنظيفها من الشعر ، ساقاها ، ذراعاها ، تحت إبطيها وأسفل بطنها ، جعلتاها تلمع ، والبنت استحمت وسرحت شعرها ، ونقطتان عطر من زجاجة تحتفظ بها واحدة منهن ، وتوكلت على الله . بقيت زميلتاها فى الحجرة صاحيتان تنتظران ، حكيتا لى فيما بعد قبل أن أطردهما . البنت اقتحمت المكان على الولد . وكان راقدا على الشازلونج واغتصبته ، آه . كانت حكاية . وفى الصباح اختفت . بحثنا هنا وهناك ولم نجدها ، أبلغتُ أهلها ، بحثوا أيضا عند أقاربهم ومعارفهم ولا أثر لها . البنتان كانتا تخفيانها فى مكان ما بالفيلا . فى الليل تتسلل إلى الولد . على هذا الحال ثلاثة أسابيع . وأنا ولا هنا . والولد انتهى من اللوحة ، وانتظر يوما يتطلع إليها . الصدفة وحدها أوقعتها فى يدى .

كانت قادمة من عند الولد على وش الفجر ، وكنت فى الصالة الخارجية . لاأذكر ما جعلنى أسهر ليلتها ولا ما كنت أفعله هناك . التفت على صرير

الباب الزجاجي المؤدى لحمام السباحة . هذا الباب ، ورأيتها تهرول فى اتجاه المطبخ ، لو نظرتْ ناحيتى لرأتنى ، تشمر جلبابها قليلا حتى لا يعوق هرولتها . أنا متكوذا ناحيتها ، تسمرتْ فى مكانها . ولا حركة . دقيقة . دقيقتان . واستدارت . ترتعش . تنتفض . رعب الدنيا . وجدتنى أسير إليها . تهاوت عند قدمى :

– سامحنى يا سيدى .

– أسامحك ؟

كل ما قالته إنها نامت مع الولد . والذنب ذنبها . هى التى ذهبت إليه . كانت منكفئة . لم أر وجهها . احتجت وقتا حتى أستوعب ما تقول .

قلت إننى سأرسلها الآن إلى أهلها يتصرفون معها .

– يقتلوننى يا سيدى .

– وتستحقين .

– سأقتل نفسى بنفسى .

هؤلاء الناس . لا أفهم .

قلت لها ان تفعل بنفسها ما تريد ولكن بعيدا عن هنا .

قالت : حاضر يا سيدى . هو يسافر الصبح وأمشى .

تركتها . مالى وكل هذا . صعدت لحجرتى .

فى الصباح قابلت الولد . كان ينتظرنى . الحقيبة على ظهره مستعدا للرحيل . يتلفت حوله . يكاد أن يقول شيئا ولا يقول . يرمقنى فى تساؤل صامت .

أعطيته باقى حسابه وقلت للسائق أن يوصله لمحطة القطار . والبنت ولا خبر عنها . واللوحة كما ترون ، وضع توقيعه بطرفها .

الحكاية طويلة ، ولكى تقطع الطريق أمام التعليقات التى يعيدون قولها تنهض فجأة وتصيح ضاحكا :

– أظن أننا فى حاجة لكأس صغيرة .

رائحة الشواء تفوح فى المكان . الضأن المشوى . يتبلونه ويشوونه بطريقة تجعل له مذاقا لا مثيل له ، اثنان من الخدم يلبسان كجرسونات المطاعم الكبيرة فى العاصمة . سترة بيضاء وفيونكة سوداء ، وقفاز أبيض خفيف ، واحد منهما خلف موقد الشواء ، والآخر خلف منضدة المشروبات ، الحاج فوزى يلبس الروب فوق البيجامة وخف بقدميه . أنتم تسعة . سكرتير المحافظة ورئيس مجلس المدينة . وثلاثة يأتون دائما برفقة الحاج ، واثنان من أصحاب المحلات المجاورة . يُخرج الحاج القطعة من جيبه فى حجم نصف القطعة التى معك ، يلقى بها على المنضدة التى تتوسطكم . أحجار الجوزة ممتلئة بالمعسل مصفوفة فى طبقات على حامل . سبع طبقات ، كل منها ستون حجرا . الجوز على حامل آخر ، وموقد النار بجواره ، ما أن يصل الحاج فوزى إلى الحجر الثلاثين حتى ينفخ فى قوة ويبدأ فى إلقاء نكت تجعلكم تنحنون من شدة الضحك . هو يشارككم الضحك خفيفا ، مستمتعا برؤيتكم وقد أفلت الزمام ورحتم تتعثرون هنا وهناك وتتساندون وتشيرون إليه لاهثين أن ينتظر قليلا .

بعد باكر ستكون مفاجأتك ، تخرج القطعة من جيبك وتلقى بها على المنضدة وتقول :

– هذه المرة . حشيش حكومة .

تعبير ظريف . أول من يضحك سيكون سكرتير المحافظة ، ويرميك بنظرة عتاب . أكثر من مرة يطلب منك أن تتذكره . ولدى انصرافك ستتجاهل ما تبقى من القطعة . سيكون أكثر من النصف ، تمضى دون أن تلتفت إليها ، حتى لو نبهك الحاج فوزى ، ستمضى وكأنك لم تسمعه .

هو فى حجرته بعد أن أنهى تحرير كشف مكافآت ضبط المخدرات ، طواه فى مظروف ودسه بجيب المعطف المعلق بمسمار خلف باب الحجرة ،

وبذلك لن ينساه فى الصباح .

الوقت تعدى منتصف الليل ، السطح يمتد خاليا . هو متعب ، لن يكون باستطاعته أن يمشى قليلا كعادته ، ويستند إلى السور ينظر من علٍ حتى يراوده النعاس . أرهقه كشف المكافآت ، أخذ منه وقتا أكثر من كشف المرتبات .

ألقى نظرة أخيرة على الماكيت . أطفأ النور واستلقى فى الفراش .

ضوء القمر يغمر الحجرة ، نسى كعادته أن يغلق النافذة ، أعطى وجهه للحائط متفاديا الضوء .

الساعات الأخيرة من الليل . عادة تخف القدم ويهدأ المركز . النوبتجى أعد مقعدا مريحا خلف مكتب فى مواجهة الباب المفتوح ، وكوب شاى ثقيل ، ومجلات قديمة سحبها من درج المكتب تساعده على السهر . فك أزرار سترته واستراح فى مقعده .

هو غير بعيد . كان قادما من عند الكوبرى ، يتوقف مترددا أمام مدخل المركز المضىء . يصعد السلم متمهلا . عند الدرجة الثالثة فوجىء بمقدم المأمور . صوته يسبقه ، يكلم من يصحبه فى غضب . يصعد السلم مسرعا . يتوقف قبل الدرجة الأخيرة ، يلتفت إليه :

- أنت مرة أخرى . وحذرتك .

دفعه فى عنف . تدحرج إلى الأرض .

نور الصباح فى عينيه . برودة البلاط تسرى إلى خده . هو ممدد جنب السرير . سحب معه فى سقطته الغطاء الخفيف وكان يلتف حول ساقيه . كم مر يذكّر نفسه بأن يأتى بكليم يغطى به أرض الحجرة . قدماه لا تتحملان الرطوبة ، حتى منظر البلاط لا يسرُّ . كالح . وحفر هنا ، وهنا . أنفه يوجعه ، لابد أنه سقط على وجهه ، كيف لم يوقظه الألم ؟ . هو أنفه نزف ، دماء جافة على شاربه . نزف قليلا . يبتعد عن المرآة .

- اغتصبته !

رفع حاجبيه خفيفا كعادته عندما يبدى تعجبه .

يوم الجمعة . عطلتة . طالت رقدته فى الفراش . الشمس ساطعة . دافئة .

لو يراها مرة أخرى ؟

التفت نحو الماكيت . ابتسامة صغيرة ظهرت على جانب فمه واختفت .

السادسة عشرة . لا تزيد عن ذلك . ضفيرة شعرها الأسود نحيلة مثل رقبتها . تقف منزوية فى ركن مظلم ترقب الولد فى قعدته على السلم المتحرك . ضوء الكشاف القوى ، يمسك فرشاة بشفتيه ، وفرشاة أخرى بكل من يديه . الوسخ يغطى جذعه العارى ، ونتف من أوراق شجر عالقة بشعر رأسه الذهبى . لو ترك نفسه لها لحممته ودعكت جسده بدل المرة مرتين . وساعتها يظن نفسه واحدا آخر ، كتمت بيدها ضحكة كادت تفلت منها وقد تخيلته بعد الاستحمام يقف غير مصدق . حين فتشت حقيبته فى غفلة منه لم تجد شيئا . غياران . واحد منهما متسخ . يميل فوق اللوحة مرتكزا على أصابع قدميه ، تمسك أنفاسها لاهثة ، تخشى أن يتحرك السلم فيختل توازنه ، تظل ساهرة فى ركنها المظلم حتى ينتهى ، يمسح يديه ووجهه فى قطعة قماش يرمى بها على السلم، ويطفىء الكشاف ، ويرقد متأوها على الشازلونج . هى فى قعدتها حتى يروح فى النوم فتمضى إلى فرشتها .

وتغتصبه !

ضوء النجوم . العتمة رقيقة . كان مستلقيا على ظهره ينظر إليها وتنظر إليه . تمددت بجواره ووضعت يدها على صدره وألصقت وجهها بخده ،

جذبت جلبابها ورفعت ساقها العارية ، أنزلتها فى حذر فوق ساقه الممدودة ، سكنت حركتها وأنفاسها تتلاحق . أحست بيده تفك زر الشورت ، ساعدته فى أنزاله ثم اعتلته . ظلت فوقه حتى بعد أن انتهيا . ابتسم لها خفيفا وتحسس خدها بأصابعه وأغمض عينيه . كانت لاتزال فوقه والنعاس يأخذه بعيدا ، ثم أحست بجسده يتحرك تحتها ، وفهمتْ أن عليها أن تنهض ، ومسحت بطرف جلبابها ما سال من دمها عليه . وزررت الشورت ، وبحثت بعينيها عن ملاءة لتغطيه، لم تجد . قعدت جنب الشازلونج تنظر إليه . نفسه هادئ . شفتاه منفرجتان ، وخصلة من شعره استقرت على خده وجانب عينه ، كادت تزيحها ثم خشيت أن توقظه .

هو واقف أمام الماكيت مطرقا ، ويداه خلف ظهره . انتبه على صوت جارته تصعد السلم . النافذة مفتوحة ، لمحها تحمل كليمين مطويين فوق رأسها ومنفضة بيدها ، مشت بامتداد السطح وفردت الكليمين على السور . قبل أن تستدير كان قد أغلق الباب ، وعاد إلى رقدته .

فتحت الباب ووقفت بالعتبة :

– حتى يوم أجازتك قاعد .

تنظر فى أنحاء الحجرة :

– ولا حتى ثلاجة . من يستغنى عنها الآن . اعطنى القلة أشرب . ريقى ناشف .

جاءها بالقلة وكوب . اكتفت بالقلة . شربت على مرتين وأعادتها إليه . لمحت الماكيت على المكتب ، ضحكت :

– بتلعب . تسلى نفسك ؟

يقف على بعد خطوتين ، ينظر إليها فى صمت :

– مالك ؟ قلت حاجة زعلتك ؟

تطيل النظر إليه مبتسمة ، مستندة بكتفها لحلق الباب ، دست يدها فى فتحة صدر جلبابها :

- شوف . لو قربت منى . حاصرخ .

لايزال ينظر إليها صامتا . أرعبه أن تفعلها وتصرخ من غير أن يقترب منها. رمقته بطرف عينها ، نفضت جلبابها بيدها وابتعدت .

هذه المرة أغلق الباب بالترباس من الداخل ، وعاد لرقدته .

فى الليل خرج . قال ربما التقيت بيونس . والتقى به .

دخل يونس المقهى صاخبا كعادته ، يحيى الجميع ثم قعد بجواره .

تناولا مشروباتهما فى صمت . وسأل يونس ضاحكا :

- ألا يوجد شيك قريبا ؟

نظر إليه متسائلا ، وعاد يونس يضحك :

- آه والله . المصاريف كثرت .

انحنى يثبت بظفره الجمرات فى حجر الشيشة :

- جارتى فوق . إياها . اسمها نوسة . تأكل كثيرا .

- مازالت معك ؟

- وهى لقيت أفضل منى وقعدت .

- وما يبقيك معها ؟

- يبقينى ؟ . قحبة آه . إنما حلوة . جسمها . ظرفها . كلها . كنت أحلم دائما بواحدة مثلها . امرأتى محترمة أكثر من اللازم . فى كل شىء.

يصفق بقدميه . ويجفف ما سال من دمعه أثناء الضحك :

- لولا خوفى من أن تتعلق برقبتك لأخذتك معى لتراها . عيبها كثرة الأكل . معدة حديد . ولا تطلب غير الصنف الغالى . خوخ . تفاح . تأكل

كيلو كاملا . والكباب كل ما آخذه من الكيلو قطعتين لا غير . من كذا يوم طلبت مانجو .

قلت : ومن أين إن شاء الله . موسمها بعيد .

- نفسى فيها .

- قولى لنفسك تصبر شوية .

- بجد نفسى فيها .

رأسى على ذراعها . عارية وطرية وتمام التمام ، ولا مزاج لأى كلام . إنما . الأمر لله . رفعت وجهى أنظر إليها . ابتسمت وقالت :

- آه . يمكن بتوحم .

كدت أقفز رعبا . أصابع يدها تمشط شعرى ، وأنا أخفيت وجهى فى ابطها . قالت :

- لها شهران مقطوعة .

- الميه ؟

- لأ . الدورة . كنت تقول أن نفسك فى حاجة منى .

صحيح قلت لها ذلك . إنما كان كلاما .

قلت : سأبحث فى كل الدنيا عن المانجو .

يا خبر أسود . ولا خطر لى . وتعمل أيه يا يونس ؟ .

فى المرة التالية جاءت . دخلت الحجرة وأنا وراءها . خلعت جلبابها . دائما قميصها التحتى أسود . تعرف أننى أفضله . طلبت منها أن ترقص قليلا قبل أن تمتلىء بطنها .

هزت وسطها خفيفا . وقالت :

- ننام أولا .

- قبل النوم وبعده .

- طب أفكر شوية .

كثيرا ما كانت ترقص فى الحجرة وأنا أنقر بإصبعى على جنب السرير . جئت بالأيشارب لأحزمها ، وهى فردت ذراعيها تنتظر . وقلت :

- فوق الترابيزة .

- لأ . هنا .

- نفسى مرة على الترابيزة . ونور اللمبة فوقك .

ترابيزة الأكل فى الصالة . مستديرة . حجمها وسط . بأربعة قوائم . واحدة منها مخلوعة . كنت ثبتها بمسمار صغير لحين إصلاحها . هى شافت الترابيزة وقالت :

- تتحملنى ؟

- تتحمل ثلاثة منك .

أمسكتُ بيدى طرف الترابيزة حيث القائم المخلوع ، وهى استندت إلى كتفى ، يدى الأخرى على ظهرها لتحفظ توازنها . قدم فوق المقعد والقدم الثانية إلى سطح الترابيزة ، اعتدلت فى وقفتها وأخذت نفسا طويلا ، وأنا تركت طرف الترابيزة لأنقر على سطحها . هزة وسط . والثانية . واندلقت . ظننتها ماتت . راقدة على ظهرها . لاتتحرك . وجهها أصفر كالليمون . وأنا فزعت . آه . فزع حقيقى ، أخذت رأسها على ذراعى وأقول نوسه . ردى علىّ . نوسه . وأتيت بالكولونيا . وعلى أنفها . فين وفين فتحت عينيها . أسندتها وهى تمسك ظهرها إلى السرير . ترمقنى ولا تقول كلمة . وتتركنى أدعك خديها ورقبتها بالكولونيا وعيناها على وجهى . آه فهمتْ . واحدة مثلها لابد فهمتها ظننتها لن تأتى بعد ذلك . يوم والثانى وجاءت . لا كلام عن الوحم ولا المانجو . والترابيزة تركتها مائلة على جنبها ، تراها فى كل مرة تأتى وتدارى ابتسامتها . نسوان . ماذا كنا نقول . آه . كنت أسأل عن شيك قريب .

– ربما بعد أيام .

– قلت لى أن أناديك بالأستاذ سالم ؟

– آه . فيه حاجة ؟

– أبدا . أذكّر نفسى .

يداه معقودتان أسفل كرشه . يرمق بطرف عينه حجر الشيشة وقد تكونت قشرة من الرماد فوق الجمرات . قال :

– الحجر . أطلب لك واحدا آخر ؟

– لأ . نمشى .

خرجا .

سارا فى شارع جانبى متسع . الظلمة خفيفة ، والمارة قليلون . قال يونس :

– الشوارع فى الليل غيرها فى النهار .

الآخر لم يعلق . وقال يونس :

– لم تحضر عصاك ؟

– نسيتها . أريد أن أسألك عن حاجة ؟

– تأمرنى .

– تعرف النّاس هنا ؟ هذا الشارع مثلا ؟

– أعرف أكثرهم . من صغرى وأنا فى الحتة .

– طيب .أبأس عائلة هنا ؟

– أبأس ؟

وتوقف محدقا اليه :

– تريد أن تساعدها ؟.

– يعنى .

يونس وقد تملكه الحماس فجأة . يتلفت حوله :

– آه. آه . أحسن حاجة تعملها فى حياتك . مررنا به .

– من ؟.

– بيتهم . هناك . ثالث ناصية على الشمال .

– من ؟.

– أم وثلاثة أولاد . أخرجتهم من المدارس ليعملوا بعد أن ضاق بها الحال . زوجها كان يعمل فى مصنع . صهر حديد أو خراطة

لا أذكر . مات . الماكينة أكلته . ولا تعويض . ولا مكافأة . أصحاب المصنع والمسئولون قالوا انه خطؤه ، وصرفوا لها مبلغا كمساعدة، يكفيها شهرين ثلاثة ، زملاؤه جمعوا لها مبلغا فيما بينهم ، ووعدوها بمثله أول كل شهر . ستة شهور ثم اخذ المبلغ يقل من شهر لآخر حتى انقطع .

– وعمرها ؟

– قل خمسين .

– وعمر اولادها ؟

– أكبرهم بنت . أحسبُها .آه تذكرت . من عمر ابنتى . تفرق شهرين ثلاثة . لا أدرى من فيهما الأكبر .

دخلا حارة ضيقة . نافذة ارضية مضيئة ، مغطاة بأسياخ حديد رفيعة .

اشار اليها يونس وكاد يندفع نحو الباب ، أمسكه الآخر :

-انتظر .

اخرج مظروفا مغلقا من جيب البالطو . همس :

– اهدأ .

– هدأت . آهو هدأت .

كان لا يزال مستثارا . ينظر للنافذة ويعود للمظروف فى يد الاخر .

همس بلهفة:

– قبل ان يناموا . لو أطفأوا النور لن يروا المظروف .

– خذ . من بين الاسياخ . دون صوت .

– فاهم . فاهم .

اندفع الى النافذة . اكتشف حين اقترب منها ان يده لن تصل الى الجزء المفتوح بفارق صغير . نظر حوله باحثا عن حجر كبير هامسا :

– يكفى حجر . مجرد حجر . اين ؟

الآخر جاء فى خطوة خفيفة .همس :

– استند الى كتفى .

استند يونس بيد على كتفه وشب بجسده ، واسقط المظروف من بين الاسياخ . ترامى اليهما صوت ارتطامه . هرولا مبتعدين ، وانزويا بمدخل بيت قريب .

اصوات بدأت تتصاعد من داخل البيت . شهقات . صرخات . صياح . احدهم يتسلق النافذة من الداخل ، وجه صبى عارى الظهر ، يحاول النفاذ من بين سيخين ، ينظر شمالا ويمينا . صوت باب يُفتح ، وامرأة تندفع حافية ، تقف على الرصيف امام البيت ، تتلفت حولها وتصيح :

– مين ؟ . مين ؟ .

شعر رأسها محلول ، وجلبابها خفيف ، تلم فتحة صدره بيدها . صوتها وقد خفت فجأة :

– مين ؟.

تتهاوى مستندة للجدار .

يونس يوشك ان يندفع نحوها ، يمسكه الآخر ، يخرج صبى وفتاة ، يحاولان رفعها من تحت إبطيها ، تنظر إليهما . تغمغم :

– وكنت اقول أين انتما ؟ . ذهب . لم الحق به .

أضيئت نوافذ وبلكونات قريبة . وأصوات تنادى :

– أيه يا أم أحمد . خير ؟ .

– خير .

صوتها الواهن . تستسلم لولديها وتدخل البيت .

لحظات وانطفأت الأنوار . عادت الحارة الى ظلمتها .

خرجا من مكمنهما ، سارا الى الشارع الرئيسى ، جفف يونس عينيه . سأل :

– كم وضعت فى المظروف ؟.

– يعنى .

– معك حق . لا يصح ان اسأل . اتمنى بعد ما رأيناه الا يقل عن الالف .

– اخبرنى عندما تسمع بغيرها .

– حا يحصل . حا يحصل .

توقف فجأة : آه . لا أعرف . ربما ..

الآخر ينظر اليه متسائلا . يقول يونس :

– معك مظروف آخر ؟.

– معى . من ؟.

– قد لا توافقنى . وربما تغضب منى .

– من ؟.

– واحدة . بعد ناصيتين . حجرة في الدور الارضى . كانت تعمل في ملهى ليلى . يعنى . زمن . شاخت . وعملت فى خمارات . ماذا كانت تعمل بها ؟ . ربما أعمال نظافة . انتهى بها الحال الى هنا . تخرج فى آخر الليل تمر على المطاعم والبارات . البعض يعطيها ما تأكل أو تشرب .

سكت . يرمق الآخر بطرف عينه . واستمرا فى سيرهما .

– قلت بعد ناصيتين . أين ؟ .

– هو ده الكلام .

دخلا فى حارة سد . بيت معتم . مدخله أيضا . ضوء يتسرب من تحت عقب الباب . نقر يونس نقرا خفيفا :

– ست سهام ؟

– أيوه . مين ؟

التفت يونس هامسا : هى ..

اعطاه الآخر المظروف . دفعه من تحت الباب ، وهرولا مبتعدين . انزويا بمدخل زقاق .

صوت باب يفتح . ورأياها مندفعة الى الخارج . وقفت امام البيت . تلبس بنطلون بيجامة ، وقميص بنصف كم ، تنظر شمالا ويمينا والمظروف بيدها .

عادت الى الحجرة .

كانا على وشك مغادرة الزقاق حين لمحاها تخرج ثانية . هذه المرة وضعت شالا على كتفيها ، وشبشبا فى قدميها . عندما مرت بهما رأيا ايضا ما يشبه الفيونكة بلون قاتم فى شعرها الفضى .

سارت مستقيمة الظهر ، ومشيا خلفها متواريين بالجدران . خرجوا الى الشارع الرئيسى ، استمرت فى سيرها ، ثم عبرت الشارع بعد ثلاث نواصى الى الجانب الاخر .

محل بقالة كبير ما يزال مفتوحا . اختفت داخله .

خرجت تحمل كيسا من الورق تضمه الى صدرها ورغيف فينو طويل بيدها . حين مرت بهما لمحا فوهات ثلاث زجاجات تطل من فتحة الكيس . مشيا وراءها . همس يونس :

– ظننت . لم يخطر لى ابدا . معك حق ان تغضب منى .

– اغضب منك ؟.

– أرشدتك إليها .

– ما الخطأ ؟.

وقفت أمام بيتها ، واستدارت تنظر الى البيوت فى مواجهتها ، من أعلاها الى أسفلها ، تغمغم :

– يا أولاد الكلب .

ويأخذ صوتها فى الارتفاع :

– أولاد الكلب . أولاد الكلب .

ظهرت أضواء كثيرة فى النوافذ والبلكونات بددت ظلمة الحارة ، كانت تقف وسطها ، لا تكف عن الصياح :

– قولوا لهم . قولوا لهم .

سقط الشال . تعلق بقدمها . سحبته معها فى حركتها المتعثرة ، وانزلق

الكيس من حضنها ، ودوى صوت تهشم الزجاجات ، لم تلتفت اليها ، ثم التفتت إليها، وضربت الكيس الذى بدا فارغا بقدمها ، فى صياحها تبتعد عن البيت ، ملوحة بذراعيها ، والرغيف بيدها . سقطت منكفئة على وجهها ، ترفس بقدميها مرة وأخرى ، ثم سكن جسدها .

وكان هناك من جرى اليها .

خرجا من الزقاق ، وسارا فى الشارع الرئيسى . همس يونس :

– ماتت ؟.

لم يسمع ردا . وعند بيت يونس افترقا .

يقف فوق الكوبرى ينظر لمياه النهر ، متكئا بكوعيه على السياج .

كان قد اخذ جولة فى البر القديم ، تسكع فى الشوارع والحوارى ، وخاض زحام الأسواق ، ورأى النسوة أشد شراسة فى المساومة ، اشتباكات هنا وهناك ، تصل إلى ذروتها ، مد الأيدي وتقطيع الملابس ، ثم تخمد . أطفال شبه عراة يجرون فى سرب يشقون طريقهم بين السيقان المتزاحمة ، تجذبهم البرك الصغيرة ، مقلدين فى صياحهم صوت القطار ، تتناثر المياه ، وينال الرذاذ بعض المارة ، والأطفال لا يبالون ، تلاحقهم الشتائم واللعنات هم وأهاليهم .

يلمح سيارة نقل تقف فى ظل أشجار على جانب الطريق ، تحتها صبيان لا يتعدى عمر الواحد منهما الرابعة . كانا فى قعدتهما متلاصقين . وذراع واحد منهما على كتف الآخر، معهما قطعة جاتوه حصلا عليها بطريقة ما من المخبز المجاور ، يبدو وكأنما يخشيان أن تنفد سريعا ، كل منهما يأخذ لحسة بطرف إصبعه ، يتذوقها على مهل ، ثم لحسة أخرى ، عينا الواحد منهما على إصبع الآخر ، لو انتظر قليلاً كان سيراهما يتماسكان عندما تقترب القطعة من نهايتها .

أراد أن يرى بيتها عن قرب ، المرأة ذات الأظافر الملونة ، ورآه . بيت من طابقين بلون ابيض ، كان لوقت قريب طابقا واحدا ترتفع فوق سطحه أعمدة خرسانة فى انتظار زواج الابن ، الآن يرى الأعمدة ممتدة فوق سطح الطابق

الثـانى فى انتظار زواج الحـفيد الذى لم يأت بعد . بلكونة صـغيـرة وحبـال منشر الغسيل خارجها معلق بها مشابك ملونة ، لو تظهر الآن ! كان يقف على رأس الحارة . وظهرتْ ، تحمل طبقاً كبيراً به ملابس مغسولة ، تعصر القطعة للمرة الأخيرة ، تتساقط قطرات قليلة فى الشارع ، تنفض القطعة وتعلقهـا بالحبال ، قميصان وبيجامة رجالى . اعتدلت فى وقفتها . تلبس جلبابـا خـفـيفـا بنصف كم وبدون ياقة ، عنقـها الممتلئ قليـلا . شـعـرها المعقوص ، به لمعة بلل ، وجهها فى اتجاه قرص الشمس الغارب .

وقع أقدام يقترب . لم يلتفت ، محدقا فى مياه النهر وتموجاتها الخفيفة .

– أنت ؟

المأمور بملابسه الميرى يقف على بعد خطوتين ، يضرب بعصاه الصغيرة جانب البنطلون ، الكوبرى خـال ، ليس هناك غيـرهمـا ، ينظر إليـه المأمور متعجبا :

– أمرك يحيرنى . ما حكايتك ؟ وأمس تخطر على بالى ، أقول ربما كان متـخفيـا يحصى حركـاتى . لا تفـهم مـعنى أن يكون وراءك من يرقـبك طول الوقت . خطوة بخطوة ، تستـمـتع ؟ . وكنت على يقين أنني سـألقـاك الليلة . بدأت أضيق بك . ودائمـا فى هذا البالطو . تنام به ؟ له رائحة البول . وبول حمير . ما حكايتك ؟ إذا كنت تجرى وراء أخبار لجريدتك تعال الى مكتبى . مثل الناس المحترمة . تشرب قهوتك وأحكى لك ما يملأ جريدتك لمدة سنة . كم يدفعون لك ؟

يصمت . ينظر فى اتجاه البر القديم . يتابع :

– أخبروني انك كنت هناك . تعال نمشى قليلا ونتكلم .

هو فى وقفته لم يتحرك . يتابع المأمور :

– ما يضايقنى أن اكلم واحدا وهذا الواحد لا يرد. أغضب. تسمعنى؟ أغضب . وغضبى صعب .

يقترب أثناء كلامه ويقف بجواره ، يضع كوعيه مثله على السياج :

– فيك شئ غامض لا يريحني . آه لا يريح . وماذا ترى هنا ؟ النهر . مياه النهر . وربما رأيت أسماكا تقفز .

يضحك : – آه تأخذ قوسا فى قفزتها وتنتصب زعانفها ، ويتألق لونها الفضى ويكون هناك من يصيح يا جمالها ، يا روعتها . ويقفون عندما تُشوى يشمون رائحتها ويقولون رائحتها لذيذة ، ويأكلونها فى نهم . تعرف ؟ أنا مثلا. لا أتحمل رؤيتهم يذبحون الحمام . ولو تصادف وشفتهم لا أقربه أثناء الأكل . مع أنى أحبه جدا . آه . يا جمالها وروعتها . وقس على ذلك الكثير . اسألنى أنا. أسوأ عمل فى الدنيا. مراكز الشرطة . كل أنواع البشر تصب عندى ، وكل ما يخطر لك من بلاوى . وتريد أن تكتب . اكتب . أيه ولا أيه . طب خذ . حكاية واحدة . واحدة فقط . معلم قد الدنيا . مقاولات . يلبس البالطو الكشمير . والجلباب الصوف والكوفية الحرير . والخاتم الذهب عيار ٢٤ فى حجم البيضة بإصبعه ويميل على جنب . عياقة . آخر كرم . يخرج من جيبه ويعطي من يلقاهم ممن ضربهم الزمن . شحاتين وغير شحاتين . وينبسط لمّا يراهم يهرولون نحوه . يدخل المقهى ، فجأة طلبات على حسابه لكل الزبائن . هناك فى البر القديم. بر المصائب . طيب . ماشى الكلام . ليكن ما يكون .أدخل المركز وأراه واقفا أمام الملازم ، معه بنت فى السابعة عشرة . جلباب قديم وطرحه على رأسها وشبشب فى رجلها . بطنها ممتلئ. ابنته من امرأة طلقها .

يسألها الملازم : مين يا بت عمل فيك كده ؟

– أبويا يا بيه .

المعلم يغمغم : ما تصدقهاش يا بيه .

خداه السمينتان محلوقتان على الآخر ، وشاريه تمام التمام . ورائحة الكولونيا . حتى وأنت قادم للمركز يا معلم ؟

استدعوه بناء على شكوى من البنت . امرأة مكومة فى ركن جنب الباب لم أرها عند دخولى ، جلبابها الأسود وطرحتها ورأسها . كله تراب . تنوح وجسمها يتمايل :

-هو يا بيه . هو .

تهم بالقيام . يصيح بها الملازم :

– خليك عندك .

يستدير للبنت بعد أن أخذ رشفتين من كوب الشاى :

-احك حكايتك .

– هو طلق أمى .

– أمك اللى قاعدة تنوح عند الباب ؟

– هى . ومن كام شهر امرأته الثانية غضبت وراحت لأهلها . وأنا وهو لوحدنا فى البيت أروح أقعد عند أمى يا أبا . يزعق :

"وجوزها اللى معاها ؟ ولا انت اللى عايزة ؟ بيمد إيده ولا حاجة تانية ؟ ما انت طالعة لأمك ."

يسأل الملازم : وزوج امك عمل كده ؟.

– عمل ايه يا بيه ؟ ده غلبان وطيب .

– كملى .

– اكنس البيت . واغسل هدومه . واطبخ له . كل يوم زفر . لغاية ما اتهد حيلى . وليلة جه متاخر زى عادته . سمعته بيبرطم . وعرفت انه شارب . لما بيشرب بخاف منه .

- وتخافى ليه ؟.
- بيبص لى بصة وحشة .
- بيشرب أيه ؟.
- موش عارفة . اسأله .
- وحاجة غير الشرب ؟.
- أفيون . الفص دايما تحت لسانه .
يغمغم المعلم : ما تصدقهاش يا بيه . دى حكاية رتبتها مع امها .
يصيح الملازم : اسكت .
ويستدير للبنت : كمّلى .
- دخل علىّ . لقيته عند راسى . ما لحقتش أغطى رجلىّ .
تسكت . وجهها جامد . وعيناها ساكنتان .
المعلم يغمغم : ما تصدقهاش يا بيه .
الملازم يرمى القلم من يده :
- قلت لك اسكت .
ينهض فجأة مزمجرا ويضربه بالكف .
المعلم وكأن أحدا لم يضربه . أخذ الكف . وترجرج خده لحظة. وانتهى الأمر.
الملازم يسأل البنت :
- وانت ؟ لم تصرخى . أو تجرى .
- اصرخ واجرى ايه يا بيه . يده على رقبتى . وبيعضنى .
- يعضك ؟.
- آه . بيعض وشى .
- وبعد كده ؟.

– بعد كده ايه ؟.

– بعد ما عمل عملته . ما رحتيش لامك ؟ تسيبى البيت ؟.

– بعد اللى حصل أروح فين يا بيه .

– ونام معاك تانى ؟ .

– تانى وتانى . كل ليلة . يريح الأربعاء والسبت .

– واشمعنى الأربعاء والسبت ؟.

– بيسهر مع أفندية للصبح .

– افندية مين ؟.

– بيقول انهم بيجيبوا له شغل .

الملازم يلتفت للمعلم :

– طلوقة يا ابن الجزمة . كل ليلة ؟ .

– برضه بتصدقها يا بيه .

يعود الملازم للبنت :

– كان بيهددك ؟ .

– مرة يهدد . أقتلك . أدبحك . ومرة ..

تسكت وتنظر للملازم . يسألها :

– ومرة ..؟

– ومرة يقول حاشوف حد يسترك . وحاشترى لك فساتين وغوايش.

– واشترى لك ؟.

– لا.

– وتشتكيه دلوقتى ؟

– بطنى كبرت وبانت . حايقتلونى .

– مين ؟

- هو أو غيره .

- غيره مين ؟.

- من طُرفه . منَ طرف أمى . أهو .

أقف جانبا . لا أتدخل في التحقيق . ابتعدتُ . حين نظرت للرجل قلت يعملها ، وعندما صرت بعيدا لم اصدق أنه يعملها. وربما كما قال.. البنت اتفقت مع أمها. سواء عملها أو لم يعملها . ليس هذا ما أقصد . فاهمنى ؟. ايه اللى بيحصل ؟ حكاية من آلاف الحكايات . من يصدق أننى أقف الآن بجانبك وأحكى لك ؟ ومن أيام ضربتك . ولم تخبرنى حتى اللحظة لم تتبعنى ، لا اصدق أنك تكتب لأى جريدة . أنا من قال ذلك . لكنك لم تنف أو تؤكد . والآن تسكت . ولا كلمة سمعتها منك . رأوك فى البر القديم . ماذا كنت تعمل هناك؟.

استدار إليه متكئا على السياج بكوع واحد :

- ربما ترتب شيئا ؟ أنت الغريب . العنصر الخارجى الذى يأتى عادة ليثير الزوابع . لم أر وجهك من قبل . ولا أقارب ولا أصحاب لك هناك . من رصدك قال إنك لم تقف مع أحد . ولا كلمت أحداً . التحريات كما ترى فى صفك حتى الآن . والتحريات ليست كل شيء . كثيرا ما تخطىء . ما أسهل أن نأتى بك إلى المركز . وبعد علقة ظريفة تتكلم . لكنى أفضل الإنتظار . إحساسى يقول إن الطبخة لم تنضج بعد ، أن أرى ما تعدونه ! . ربما كان شيئا جديدا . خيبة أملى لو كان شيئا مكررا وتافها . لى هنا سبع سنوات . كان أول ما تلقيته من تعليمات . البر القديم . لا تستهن به . البر القديم ، يسبب لهم فى العاصمة قلقا لم أفهمه . الآن أحس قلقهم . مغلق على نفسه ، كتوم . لا يفصح ولو قليلا . عندهم مصادر أخرى غيرى . لا أعلم

عنها شيئا . يفاجئوننى بما لم أره أو أسمع به وأكتشف بعد ذلك أنهم على حق . وربما كنت أنت واحدا من مصادرهم ؟.

يحدق إليه لحظة صامتاً . يتابع كلامه :

– لن تخبرنى طبعا . قالوا إن البر القديم يقف على الحافة . ولو كنت من مصادرهم ستعرف أكثر منى . مؤهل فى أى لحظة للانفجار . وأول ما سيفعلونه الاندفاع إلى البر الثانى ، التخريب الأعمى . حكاية قديمة تتكرر من وقت لآخر . ما الجديد ؟ . أخبرنى إذا كنت منهم . شرارة صغيرة ويشتعل . طيب . أعرف ذلك دون أن ينبهونى إليه . بديهيات . كلام عام . أريد أشياء محددة . فليأتونى بها وأتصرف ، وربما تكون أنت هذه الشرارة ؟ .

يرمقه لحظات من فوق لتحت . يواصل :

– ولم لا تكون ؟ هل سمعت فى حياتك أن المأمور فى أى مركز يقوم بالدورية ؟ أنا أفعل . الملازم يقوم بالدورية العادية فى البر القديم . لا أكتفى بها . أرى بنفسى . إحساسى . خبرتى . أرى ما لا يراه . وأنت ؟ – يتأمله صامتا – منذ أخبرونى بوجودك هناك وأنا أفكر فيك . أستعيد المرات التى رأيتك فيها ، أحاول أن أجد خانة أضعك فيها ، وأراك ملائما لكل منها . ماذا كنت تفعل عند بيتها ؟ لا تتظاهر بأنك لا تسمعنى . كانت هناك فى البلكونة أمامك . تبادلتما إشارات ؟ تعرفها من زمن ؟ سكوتك بدأ يضايقنى . حبيب قديم ؟ الآن تثير غضبى . لا أتحمل أبدا ألا يرد أحدهم على سؤالى .

يعتدل فى وقفته ، ويشد قامته . تسقط عصاه ، ينحنى ليلتقطها ، وربما خطرت له الفكرة عندما انحنى وأبصر بالحذاء القديم الكالح ، والقدمين

متعانقتين . مد ذراعه واحتوى الساقين وقذف بهما فى عنف إلى أعلى . ورأى الجسد ينطوى ويندفع للمياه الداكنة .

أستدار ومشى بخطوته المنتظمة إلى البر الثانى .

يهوى . ما يخشاه هو لحظة ارتطامه بسطح الماء ، ينتظرها واجفا ، وعندما جاءت كاد لا يحس بها . يغوص ، لو تحمل قليلا ، هو يجيد العوم . شهق . تلفت حوله . أرض الحمام . غارقة بالمياه ، ممدد على جنبه ، الماء وصل إلى فمه وأنفه ، لمح قوس الماء المندفع من شطاف المرحاض . زحف إليه . الحنفية تالفة ، أنزل غطاء المرحاض ليحجز الماء داخله . يحدث أحيانا ان يدخل الحمام أثناء نومه . أرضه مبللة . انزلق . تحسس مؤخرة رأسه . ما يشبه الورم . غيبوبة ؟ . وكم مضى من وقت وهو ملقى . خلع كل ملابسه وكانت مبتلة ، عصرها وكومها على ذراعه ، مضى لينشرها على الحبل . انتبه لعريه حين لسعه هواء السطح البارد . تراجع مسرعا وأغلق الباب .

يقف أمام الماكيت يفكر فى إعداد كشف بمكافآت يمكن صرفها . أى مكافآت ؟ ضبط ؟ ضبط ماذا ؟ . المخدرات وسبق إعداد كشف بمكافآتها من فترة قريبة . استتباب الأمن ؟ ولا يصرف مكافآت عن ذلك . الأمن دائما مستتب . لا يميل إلى زيارات المسئولين ، وما يمنحونه من مكافآت فى هذه المناسبة . عشرة أيام من الراتب . نصف شهر . لا تستحق التعب فى إعداد الكشف . فى النهاية أزاح الأوراق جانبا .

مدينة مثل الخالدية لابد وأن تضاء ليلا . كيس من البلاستيك ممتلىء بأشياء اشتراها لدى عودته من العمل . سلك كهرباء معلق به لمبات صغيرة . الواحدة فى حجم حبة الفول . ملونة . أزرق . أحمر . شفاف . أصفر . أخضر. يمرر السلك داخل الماكيت . البر القديم الأنوار به قليلة . متفرقة . ما تبقى من أعمدة الإضاءة أغلبه مطفأ . اللمبات تلفت أو سرقت ، ولا يأتى بديل عنها . الأعمدة نفسها ، منها ما سقط ومازال ممددا ، تكومت بجانبه ما تدفع به الريح من زبالة ، وتستريح بجانبه كلاب تعبت من التسكع ، ومن الأعمدة أيضا ما خلع من مكانه واختفى ، له استخدامه فى قنوات الصرف . فقط فوانيس الزمن الغابر التى كانت تضاء بالكيروسين ما زالت معلقة بنواصى الحوارى والشوارع ، مطفأة ومتربة ، ومن يلتفت إليها ؟ أيضا بقى التمثال مكانه ، صامدا أمام رغبات التخريب والسرقة . تمثال الجندى المجهول . كان يتصدر مدخل البر القديم فوق قاعدة من الرخام ،

التمثال أقامه أهالى البر على نفقتهم فى الزمن القديم تخليدا لذكرى أبنائه الذين ساقوهم للقتال فى حرب لا علاقة لهم بها . مائة وعشرون . لم يرجع منهم أحد . الإضاءة هنا بلون أصفر شاحب . الكوبرى ، لمبات شفافة . إضاءة قوية . تستطيع يا حضرة المأمور أنت ومن معك أن تروا عن بعد كل ما يدب أو يزحف فوقه . البر الثانى ، مهرجان من الأضواء . كل الألوان ، يفرحون بها هناك ، يعلقونها على الأسوار الخارجية وفوق الأشجار . نخلات متفرقة مكسوة من فوق لتحت بالأنوار الملونة . تثير البهجة . نخلتان على جانبى مدخل الحديقة العامة ، واثنتان بالميدان . النافورة وكدت أنساها ، تتوسط الميدان ، الأنوار حول حلقها . كل الألوان . خرير الماء . أقواسه المتدفقة ، مياه ملونة . وأضواء أخرى تحلق فى الفضاء . من يراها يظنها تتحرك مع السحب . هنا بيتها . الست نجوى . فيلا كبيرة من دورين ، اللمبات متناثرة بين حشائش حديقة المدخل ، لا تراها ، ولا ترى مسار أشعتها ، ضوؤها شفاف ناعم ، يحيط بالفيلا وكأنه ضوء القمر .

أطفأ نور الحجرة واستلقى فى الفراش ، الماكيت يتلألأ بالأنوار فوق المكتب، ثنى ذراعه تحت رأسه وكان راضيا . تسمع عن الست نجوى ولا تراها . ثم تراها . دعوة لحفل عيد ميلادها . لم يحدث من قبل أن دعتك ، وكان الأمر يحز فى نفسك . الحفل الأسطورى . تترامى إليك أخباره . صفوة الناس ، من البلدة والعاصمة . سياراتهم الفخمة تكاد تغلق الشارع أمام الفيلا ، وتعطى أمرا بحراسة غير مرئية تتسكع عن قرب حول المكان ، وتكون حريصا أن يبلغها أمر هذه الحراسة عن طريق السائقين .

عدد من الحجرات محجوزة في الفندق الفخم " خمس نجوم " المطل على النهر للبعض من ضيوف العاصمة . أنت لا تشغل بالك بهم ، فالحراسة حول الفندق مكثفة ودائمة . أردت فقط أن تعرف فقط أسماءهم ، وتصيبك الدهشة حين تكتشف أنهم بلا مناصب ولم تسمع بهم من قبل . عندها بالفيلا العديد من الحجرات مجهزة لاقامة ضيوف ، غير شقتين كل منهما خمس حجرات فى عمارة كبيرة ، فلم الفندق ؟ . ربما أعمال تجرى فى سرية ، ولا ترغب فى اختلاطهم بآخرين على نطاق واسع ، تكفى ساعات الحفل التى لن تسمح بغير المجاملات ، لا ترى مانعا أن تدون أسماءهم فى دفترك الخاص ، عادة اكتسبتها واسترحت لها ، وأفادتك أحيانا .

بطاقة الدعوة بلون وردى . كلماتها مذهبة ، وردة صغيرة من الدانتيلا البيضاء ملصقة بطرفها . تدفع بالدعوة جانبا ، تفكر فى الاعتذار . لا تريد أن تبدى تلهفا ، ولتنتقم أيضا من تجاهلها لك . مازلت مطرقا خلف مكتبك ، يحين موعد الحفل وأنت فى ترددك ، ثم تقرر الذهاب .

البدلة الكحلى المدنى ، من زمن لم تلبسها . تكتفى بوردة بيضاء ملفوفة بالسوليفان تأخذها فى يدك . حديقة الفيلا تموج برجال ونساء بثياب السهرة . تمشى متمهلا بينهم ، لاأحد يلتفت إليك ، تلمح الحاج فوزى ، يومىء لك . يأخذك ويقدمك لها . سيدة فى الأربعين . مليحة . تبتسم لك ، تحنى رأسك قليلا وتهنئها . يدهشك هذا الكم من أنواع الطعام والشراب ، خرفان وديوك رومى مشوية معلقة فى أسياخ فوق جمرات صغيرة لتحتفظ بسخونتها ، بوفيه ممدود بشكل زاوية قائمة فى ركن الحديقة محمل بالكثير ، يقف خلفه الخدم بستراتهم البيضاء . وجوه تراها فى الصحف والتلفزيون . ومسئولون كبار ، أنت المأمور لمركز مدينة إقليمية تأخذك

الرهبة ، تلازم الحاج فوزى ، ثم فى لحظة تلتفت ولا تراه بجوارك ، كان هناك يتحدث ضاحكا مع آخرين ، تغادر قبل انتهاء السهرة ، تتسلل حتى لا يراك أحد . لم تكن غاضبا ، وبالطبع غير مبسوط ، بعدها بيوم تأتيك دعوة لتناول فنجان شاى معها عصرا . هذه المرة الدعوة بالتليفون ، تعاتبك لخروجك مبكرا . يرضيك كلامها ، وتهز قدميك تحت المكتب ، أن تكتشف خروجك من الحفل رغم تسللك ! .

تذهب إليها فى الموعد ، تقعد تحت شمسية فى الحديقة ، تلبس فستانا بسيطا من القطن المشجر ، يكشف عن ذراعيها وساقيها . وجهها بلا زينة ، تحس أنها أجمل بكثير مما كانت يوم الحفل ، تنطلق فى الكلام معها . تحدثها فى كل شىء حتى ما ترى أنه مشاكل فى العمل ، وتبالغ قليلا فى مواقفك الصارمة . هى تنصت ، لم تعلق بكلمة . غير أنها تبدى اهتماما بما تقول ، وتومىء برأسها من حين لآخر ، وتبتسم خفيفا ، وأحيانا تربت على يدك فى مودة ، لم يحدث من قبل أن أنصت لك أحد حتى امرأتك بهذا الاهتمام . تقول لك فى النهاية وهى تودعك إنها سعيدة بالتعرف على رجل متفتح مثلك ، فهى لا تتحمل أصحاب العقول الضيقة ، يسببون لها صداعا .

تخرج من عندها فى مزاج طيب ، تصرف السائق بالسيارة وتأخذها مشيا .

فى الطريق تستعيد ما قالته ، تتأمله قليلا ، هى تعرف أنك على علم بنشاطها، وقدّرتْ لك عدم الإشارة إليه من قريب أو بعيد ، والاحترام الشديد الذى أبديته لها جعلها تحس أنك لا ترى فيه ما يعيب .

هى تربى البنات ، أو ما تسميهم أنت الكتاكيت . فيما بعد عرفت التفاصيل ، حكته بنفسها لك حين توطدت علاقتكما . معرفتك الأولى كانت

قاصرة على طبيعة نشاطها حتى وقع ذلك الحادث الطريف . أنت من وصفه بالطرافة ، وحين حكيته للست نجوى كنت تضحك . هى أيضا .

قالت : أما حكاية !

وقلت وأنت تهز رأسك مبديا قليلا من الأسف : آه والله .

الولد جاء من كفر بعيد ، فى السابعة عشر من عمره ، يلبس سترة قديمة فوق جلباب قديم ، الياقة مفتوحة على آخرها ، ضاعت كل أزرارها ، يظهر منها لحم صدره غامق اللون ، وحذاء متهالك فى قدميه بدون شراب ، أنت تعرف هذا النوع من الفتيان الذين يعيشون طول حياتهم فى الكفور ، وعندما يضطر للذهاب إلى المدينة يستعير سترة وحذاء من تلميذ أو من أى واحد آخر . القروش القليلة معه حافظ عليها فلا يعرف ما سيواجهه . جاء يبحث عن أخته الصغيرة . فى الثالثة عشر من عمرها . البنت الوحيدة على أربعة ذكور . هو أصغر الذكور ، اعتادت أن ترافقه على ظهر الحمار كلما ذهب إلى الغيطان، وتصعد على كتفيه لتصل إلى فروع أشجار التوت العالية ، اختفت من ثلاثة أيام ، ومن دون اخوته خرج هو يبحث عنها ، كل ما يعرفه أنها جاءت إلى الخالدية . قال ذلك فى المحضر بالمركز ، كان قد أخذ جولة طويلة فى البر القديم ، وتسكع أمام البيوت فى البر الثانى ، كل ما فى دماغه أن أحدهم ضحك عليها وجاء بها لتخدم فى أحد البيوت ، وكان على يقين من أنه سيلتقى بها ، يراها أمام بيت ، أو تطل من نافذة ، وإن لم يرها فربما رأته هى ونادت عليه ، واستمر فى التجول ، وفى آخر الليل ، وبعد أن كلت قدماه توجه إلى المركز ربما بلغهم عنها خبر ، صعد السلالم وراح يحدق فى الردهة الخالية، النوبتجى أشار له بالدخول ، تردد وكاد يتراجع ثم حزم أمره ومضى إليه .

إحدى المرأتين اللتين تعملان لحساب الست نجوى فى الناحية ، ولا تعرفان الست نجوى ولا سمعتا بها ، وجدت مخنوقة فى بيتها بالكفر الذى جاء منه الولد . الحادث أبلغ للمركز وذهب إلى هناك من يُجرى التحقيق ، فيما بعد خمنت أنت أنه الولد الذى قتلها ، وربما بلغه أن لها يدا فى اختفاء البنات من كفر الشمام ، وصل عددهن ثلاث عشرة ، ولم يعثر على واحدة منهن حية أو ميتة . المرأة تعمل خياطة ، تتجمع فى بيتها البنات من وقت لآخر لخياطة جلابيب أو الفرجة ، وأحيانا تطلب منهن الخياطة المساعدة فى أعمال البيت أو شراء حاجات لها . لابد أن الولد دخل عليها وراح يكتم أنفاسها لتخبره . هى لا تعرف أكثر من أن هناك من سيأخذ البنت للخالدية . سمعت بذلك . أخفت عنه اسم من سلمتها إليها خوفا من اجراء تحقيق يكشف عن دورها ، وربما لم يسمح لها الوقت بأن تخبره بكل ما لديها .

احتفظت بشكوكك لنفسك وقد رأيت الخيط يتلوى ويصل إلى الست نجوى ، ولو وجه الاتهام للولد سينكشف الكثير مما خفى ، وربما بان تقاعسك ، وحتى لو أفلت من ذلك ستروح منك الست نجوى ، وكنت بدأت تنتعش بمعرفتك بها ، وأفكار جميلة راحت تلهو فى رأسك . المبرر الذى رددته لنفسك هو إشفاقك على الولد ، فقد عانى الكثير فى بحثه عن أخته ، ويكفى أنه فقدها .

فيما بعد قيد مقتل الخياطة ضد مجهول والدافع السرقة .

النوبتجى يسأل الولد :

– واسم أختك ؟

– نوال .

- وازاى عرفت أنها جاءت للخالدية ؟

- عرفت والسلام .

- أيه يا روح أمك .

انكمش الولد : عرفت .

- ازاى ؟

- ناس شافوها .

- مين الناس ؟

- على السكك . ماعرفهمش .

- لكم أقارب . معارف هنا فى الخالدية ؟

- لأ .

النويتجى من الكفور مثله ، أمامه طبق به سندوتشات فول وطعمية ، وعين الولد تحاول أن تنظر بعيدا عن الطبق .فى النهاية دفع النويتجى الطبق نحوه :

- كل .

يتمنع الولد قليلا ثم يأكل ، والنويتجى قال له :

- أيام ونعرف راحت فين .

الولد بعد أن أكل أشار إلى ما وراء مقعد النويتجى وسأل :

-أنام هنا للصبح ؟

- ممنوع .

وعاد النويتجى يقول :

- كلها ساعتين تلاتة ويطلع النهار . تمدد فى الحجز ؟

وافق الولد .

النوبتجى تناول المفتاح المعلق بجوار المكتب ، وسار إلى غرفة الحجز ، فتحها والولد دخل ، وأغلق النوبتجي الباب .

سرت حركة فى ظلمة الحجرة ، عيون كانت مغمضة فى تعاسها استيقظت ولمعت نظراتها ، وسيقان كانت مطوية تمددت ، الولد يتحسس الجدار ، باحثا بقدمه عن مكان خال . جذبته يد ليقعد فقعد ، لحظات وأطبقت يد على فمه ، ويد رفعت ذيل جلبابه ، عافر ، أكثر من يد شلت حركته ، وأنفاس ساخنة قريبة من وجهه ، ولمحه قادما من الجانب الآخر ويده تنزل سرواله ، ملامحه مختفية فى الظلمة ، حاول الإفلات مرة أخرى ، اشتدت القبضات حول جسده .

أطلقوه أخيرا . راح يصرخ ويصرخ ، ويضرب بيديه الفراغ حوله ، ما أن فتح الباب حتى انطلق ، دفع النوبتجى وكان يوشك على الدخول فتعثر ووقع ، أخذ السلالم قفزا ، واختفى .

– لابد أنه فى بيته الآن بكفر الشمام .

تقولها ضاحكا . وتقول أيضا :

– لا أظنه سيأتى بعد ذلك إلى هنا .

وتضحك مرة أخرى . وهى تضحك . تسألك فى شىء من التعجب :

– والحجز ؟

– الحجز . ما يحدث به أمر معروف . ولا علاج له . ولِمَ نتحمل وحدنا المسئولية فى ذلك ؟

– قلت كفر الشمام .

– الولد من هناك . لم تسألين ؟

– أخبرنى . هل توجد علاقة بين أكل الشمام وجمال البنات ؟

تضحك أنت وتقول : أما سؤال !

وتقول هى : أجمل من رأيت فى حياتى من بنات كن من هناك .

تتابع وقد لمحتْ التساؤل فى نظراتك :

– آه . رأيتُ الكثيرات . وأكثر من بلد . جميلات آه . إنما كفر الشمام مستوى آخر . جمال غير معقول . يجنن . اللون الخمرى النادر ، والعيون الواسعة العسلى ورموشها الطويلة ، والعود السرح . والشعر الكستنائى . كلهن . يختلفن فى حاجات بسيطة . سيبك من القشف فى الرجلين والذراعين ، وبقع العطش فى الوجه ، والقمل طبعا . كله يمكن علاجه . لو تراهن بعد أن أغيرهن . شىء آخر . مخلوقات حلوة تفرح . ولن تصدق أن هؤلاء من كنت تراهن يتمرغن فى السباخ .

تسكتْ فجأة . تقول :

– كنت أظنك تعرف ؟

– أول مرة ..

– غلطت أنى قلت لك ؟ .

– خارج مكتبى أكون مثل كثيرين . سريع النسيان .

ابتسامتها ، والمودة فى عينيها . تربت بيدها على ركبتك وتحكى .

لديها امرأتان – الخياطة كانت واحدة منهما – تلتقطان البنات من الكفور البعيدة . تعرفان الأوصاف التى تريدها فى البنت . تختفى البنت بطريقة ما ، يتم تسليمها إلى بيت فى قرية غير بعيدة . فى الصباح الباكر يقف حنطور أمام الفيلا . به سيدة ومعها بنت كخادمة لها . لابد أن ألقى عليها النظرة الأخيرة ، إعادتهن من البداية أسهل بكثير من إعادتهن بعد ذلك . لم يحدث أن أعدتُ واحدة منهن ، حتى من كنت أراها نص نص أقول

تأخذ حظها ، ولم تخذلنى واحدة منهن حتى الآن . ويواصل الحنطور طريقه إلى محطة القطار. ترسل بهن إلى ما يشبه المعسكر . أنت من سميته معسكراً . معسكر أيه ؟ -تضحك وتضربك على يدك - دى فيلا عَ البحر . قرية سياحية . تملك فيها أربع فيلات . تستخدم اثنتين ، الأخريان مغلقتان للزمن .

- لو تراهن بعدها !

ورأيتَ . كنت خارجا من الفيلا حين توقف التاكسى أمامها ، يحمل لوحة العاصمة ، تهبط منه فتاة بهرك جمالها ورشاقتها . انحناءتها وهى تسحب من التاكسى حقيبة سفر صغيرة . تلبس فستانا بنصف كم يصل للركبة ، خطوتك المتمهلة عند البوابة ، ونظراتك لها . تكاد تمر بك . تسألها :

- ابنة الست نجوى ؟

- خالتى .

وتمضى إلى الداخل .

يومها مشيت إلى المركز وأنت تلعن كل ما سمعته وقرأته عن الشرف والفضيلة . حشو ، ولغو ، لا يكفون عن التشدق بمعانيهما وحث الناس على التمسك بهما . من أجل ماذا ؟ . أنت رأيتهن هناك فى الغيطان وعلى حمير التتريب ، وقنوات الصرف ، وطين الشاطىء ، لا يختلفن عما حولهن من حيوانات ، ما العيب ؟ . آه ما العيب ؟ .

تغادران قعدتكما فى الحديقة . موعد " تعسيلتها "فى العصر . تسيران متمهلين نحو باب الفيلا الداخلى ، تمد يدك تمسك بذراعها العارى وكأنما تبعدها عن وحل خفيف لمحتَه فى طريقها . لمسة أصابعك للحم ذراعها قالت غير ذلك . توقفتْ والتفتت إليك مبتسمة :

– لا تزعل منى . أنا صريحة دائما مع أصحابى . لى صديق وأحبه . أتمنى أن تفهمنى ونظل أصحابا .

تراخت يدك بجوارك ، وبادلتها الابتسام . أنت لم ترغبها بالشكل الذى تظاهرت به . ظننت فقط أنه مطلوب منك أن تفعل ذلك ، وكنت حريصا على صداقتها .

اتصلت بك يوما ، أخبرتك أن واحدا من زملائك هاجم شقة لها فى العاصمة ، لا يهمها ما أخذوه من الشقة ، ولكنها فقط قلقة على البنات الثلاث والدادة . أخذوهن معهم . والشقة كما قالت مجرد معرض صغير لأعمال" الكروشيه " وثمة لوحة على باب الشقة وعلى باب العمارة تفيد ذلك ، وبصالة الشقة فترينات زجاجية معروض بها الأعمال للبيع . لم ترغب فى محل مفتوح على الشارع تهربا من الضرائب ، وهذا خطؤها . وسألتك إن كنت تستطيع أن تفعل شيئا ؟

وقلت : أشوف .

زميلك فى العاصمة من دفعتك ، تكلمتما طويلا . فى النهاية قال لك إن التحريات على ما يبدو كانت غير دقيقة . ففعلا اللافتة موجودة على باب العمارة وباب الشقة ، وفترينات العرض بالصالة ، وتبادلتما الشكوى من التحريات الخاطئة ، وأحيانا ما تكون مغرضة ، لا يُختار لها أكفاء أو من ذوى الضمير مع خطورتها ، ويوقعكما ذلك فى مآزق سخيفة ، وطلب منك فى آخر الحديث أن تنصح صاحبتك بإبلاغ الضرائب عن مبيعاتها من الكروشيه وأرباحها لأنه سيشير فى تقريره إلى واقعة التهرب .

وتكون فى مكتبك مسترخيا على الكنبة ، تفكر فى أحوال الدنيا . وتتذكر البنت التى قابلتها بمدخل الفيلا ، ومشيتها بعد أن مرت بك ، تستدير

لتتابعها بنظراتك ، حذاؤها بكعب طويل رفيع ، والممرات فى الحديقة مكسوة بالحصى ، تتمايل فى خطوتها ، تلمس الحصى خفيفا أشبه بعصفور يقفز، تتأملها فى رقدتك حتى تختفى داخل الفيلا . تكاد تغفو ، ثم تتذكر قولا سمعته من وقت قريب . هكذا قفز فجأة إلى بالك . " فتح الزجاجة يكلف غاليا " . وضحكات صاخبة . وتتذكر المكان . فيلا الحاج فوزى . السهرة هناك . ومن قاله ؟ ربما واحد من صحابه . كان هناك تاجر خردة ، وصاحب مصنع النسيج فى البر القديم ، كانا قد أبرما صفقة لبيع ماكينات قديمة بالمصنع . قالها الحاج فوزى ، وأعاد قولها صاحب المصنع ، كانوا قد شربوا كثيرا ويضحكون لأى شىء . تتساءل وأنت خالى البال " كيف؟ زجاجة الكوكاكولا لا تكلف أكثر من نصف جنيه " . يتوقفون عن الشرب والحركة محدقين فى وجهك ، ثم ينفجرون فى وقت واحد ، ضحك متواصل ، سعال . لهاث ، تأوهات . وتفهم أنهم يقصدون شيئا آخر . كان الحديث وقتها يدور حول النساء مثل أغلب قعدات الشراب ، وعرفت ما يقصدونه ، تهز رأسك كنوع من الاعتذار وتبتسم ، ويهللون :

- آه كده .

فتح الزجاجة . قول خشن . لم تحبه . رغم ذلك وجدت نفسك تبتسم . القعدة لها أصولها .

وتتذكر القول فى مناسبة أخرى . الست نجوى كانت علمت بعزمك على السفر ، اتصلت بك وسألتك عن الموعد ؟

وقلت : بعد باكر .

وسألتك إن كان لديك مانع أن تسافر فى سيارتها بدلا من القطار ؟

وتقول إنه لا مانع لديك .

تقــول لك أن البنت عندها ستـرافـقك . تسلمـهـا لمستـشـفى خـاص بالعـاصمة . ستكون أكثر اطمئنانا عليها وهى معك . واعتذرت عن عدم قدرتها على السفر بسبب آلام الفقرات التى حدثتك عنها من قبل .

تسألها : أى بنت ؟

تقول : أنت رأيتها وكنت خارجا من عندى .

– آه . تذكرتها . خير ؟

– ستجرى عملية تجميل صغيرة . أنفها . وإذا أردت أخبر السائق بموعد عودتك ليمر عليك فى بيتك ويأتى بك .

كانت بداية استخدامك لسياراتها الفخمة المكيفة .

تجلس البنت بجوارك فى المقعد الخلفى . ثلاجة صغيرة بين المقعدين الأماميين ، بها شيكولاته وعلب عصير . البنت تبتسم لك فى مودة . تعرف منها أن الست نجوى أخبرتها أنك أحد أقاربها .

تلتهم فى سرعة ثلاثة أصابع من الشيكولاته :

– لو رأتنى خالتى ! تمنعنى من أكلها . تقول إنها ..

ونظرت بطرف عينها إلى السائق السمين ، خفضت بصرها وابتسمت فى الخفاء :

– لن تقول لها أننى أكلت شوكولاته ؟

– لن أقول .

مالت وقبلتك فى خدك ، مازالت تأتى بحركات من يديها وقدميها تشى بأصلها القديم ، تفعلها دون انتباه ، لمحت ذلك أول ما لمحته عندما نفضت

بيدها ما سقط من شوكولاته على صدرها ، وحين التصقت قطعة صغيرة منها بالفستان بلت طرف المنديل بريقها وراحت تمسحها ، ثم نفخت فيها لتجفف البلل ، والتفتت إليك :

- راحت .

تسألها إن كانت خائفة من العملية ؟

كانت تنظر من نافذة السيارة . قالت دون أن تلتفت :

- عملية أيه ؟ . دى شكة دبوس .

أنت حائر لم تفهم . تعود لسؤالها :

- عملتيها من قبل ؟

- دى التالتة .

وتفهم أخيرا . شيء آخر غير أنفها . آه فتح الزجاجة . حور العين . تعود بعدها كما كانت . كذبت عليك الست نجوى . وتجد لها عذرا . فالموضوع لا يصح الكلام فيه ، خاصة واحد وواحدة . تتأمل البنت ، تستند بجانب رأسها لظهر المقعد وعيناها على زجاج النافذة يغلب عليهما النعاس .

أيقظتها حين وصلتم . مستشفى نظيف فى ضاحية هادئة . البنت نزلت مع السائق وحقيبة سفرها الصغيرة فى يدها ، تبعتها متمهلا . فى ردهة الاستقبال تقدم منهما مسئول يلبس البالطو الأبيض ويبتسم مرحبا . البنت بادلته الابتسام وشبت على قدميها وقبلته فى خده ، أخذها من ذراعها واختفيا .

ما كدت تهبط السلم خارجا حتى رأيته . يقف مستندا بظهره لجدار المستشفى. الغضب العنيف الذى عصف بك . تتقدم مزمجرا :

- وهنا ...

تنهال عليه باللكمات والرفس ، يستدير متشبثا بالجدار ، واللكمات لا تتوقف ، يتهاوى ، السائق يمسك بك يحاول أن يبعدك ، تنفض يديه عنك وتمضى إلى السيارة .

يؤلمه الضوء المفاجىء . يحيط وجهه بذراعيه ، كان مكوما بطرف الفراش من ناحية الحائط ، يسمع صوت جارته :

- صراخك وصل لتحت .

أكثر من يد تمتد إلى جسده ، تحاول أن تفرده ، يستسلم لها . جارته وآخرون من جيرانه يقفون وسط الحجرة . دائما ما ينسى الباب مفتوحا . مجرد أن يغلبه النوم فينام . سترة البيجامة عليها بقع دم . الحائط أيضا حيث كان ملتصقا به ، أنفه على ما يبدو نزف كثيرا ، ما أن يحتك بشىء حتى ينزف . واحد من الجيران يرمقه فى قلق . يقول لجارته :

- اغسلى وجهه أكون أحضرت ما أجده عندى .

سحبته الجارة إلى الحمام . حنى رأسه على الحوض . شطفت له وجهه ، طلب منها هامسا أن تحضر له بيجامة أخرى من الدولاب فى الحجرة .

جاره مال عليه يضع محلولا على جرح بحاجبه ، وقطعة شاش وشريط لاصق ، ونظر فى تجويف أنفه . سأله إن كانت هذه الكوابيس تأتيه كثيرا .

قال : أحيانا .

- من الأفضل أن ترى طبيبا .

- جرح بسيط .

– لا أقصد الجرح . الكوابيس . وصلت لمرحلة . طبيب أعصاب .

واستدار ليلحق بالآخرين وكانوا ينتظرون خارج الباب ، لمح الماكيت وأنواره الصغيرة الملونة ، ابتسم متعجبا . قال :

– ظريف .

وخرج .

تحامل على نفسه . بلل قطعة قماش بالماء ومسح الحائط من آثار دمائه . أطفأ نور الحجرة ، وأنوار الماكيت ، وعاد للفراش .

يذهب ويأتى فى الحجرة . يتوقف أمام الماكيت ، يتأمله لحظة ثم يواصل السير ، شىء ما لا يرضيه . كان مقطبا ويداه خلف ظهره . ابتعد خطوات عن الماكيت وعاد ينظر إليه . هو لم يقصد أن تجرى الأمور على هذا النحو ، وعندما كان يعد الماكيت أراد أحداثا يترتب عليها مكافآت وجزاءات . والآن لا يستطيع أن يتخيل الأماكن والحركة كما يريد ، يفاجأ بناس وأماكن أخرى لم تخطر له ، ولا كانت على باله تقتحم ما يعده ، وتفرض نفسها ، وكأن كل شىء أخذ يتحرك وحده ، تأتى الأحداث وتتلاحق وهو يتبعها . كان قاعدا على طرف السرير مطرقا ويداه بين ساقيه . ربما بالغ فى لوم نفسه . ما زالت الخطوط الرئيسية فى يده ، الأشياء الصغيرة تأتى وتذهب . لا يهم . هذه طبيعتها ، تظهر وتختفى فجأة . غير أنها تؤثر . أكثر من مرة تَغير مجرى الأحداث بسببها . وله أكثر من شهرين لم يحرر كشف مكافآت واحد ، ولا أصدر قرارا بأى عقوبة . وأين هى الأحداث التى تأتى بذلك ؟ ، ابتعد عنها وجرى وراء أحداث أخرى لا تأتى بشىء . رغم ذلك ...

سحب مقعدا إلى السطح ، جلس بركن السور . فى كل مرة يتعكر مزاجه ينظر قليلا من مكانه المرتفع ، لا يصفو تماما ، ولكنه يكون قادرا على التأمل فى هدوء .

عاد إلى الحجرة . وقف مرة أخرى أمام الماكيت . ربما لو أجرى بعض التعديل . البر القديم متسع ، شيء طبيعي أن يأخذ هذه المساحة . الأصل والجذور . الأرض والمصنع . وهنا البر الثاني ، أقل اتساعا ، وماذا يكون ؟ يفوح بالعطر ، ينأى ولا ينأى . أى تعديل ؟ . عندما عكف على إعداده كان راضيا ، وفرحا ، ويتعجل الانتهاء منه ليراه مكتملا ، وماذا جرى ؟ تتحرك الأحداث لوحدها ؟ . ليكن . وإذا جاءت المكافآت والعقوبات من نفسها كان بها ، وإذا لم تأت لا يهم. لا تعديل ، لن يغير شيئا قام بعمله . ربما لو خرج قليلا تحسن حاله . وخرج .

أخذ جولة واسعة وسط الشوارع المزدحمة ، ومشى على شاطىء النهر ، وجلس على مقعد ينظر إلى انعكاسات الأضواء على المياه ، وسمع نبش العصافير فى أعشاشها على فروع شجرة تمتد فوقه . وغمغم " مخلوقات صغيرة " .

نهض وسار إلى المقهى .

يونس فى ركن بعيد منعزل يدخن الشيشة ، كان مكتئبا على غير العادة .

– لم أرك تدخن الشيشة من قبل ؟

– قلت أدخنها .

– ما بك ؟

– امرأتى .

سكت . مال برأسه قليلا :

– رأتنا .

– أنت وجارتك ؟

- آه .

أجهش فجأة بالبكاء مطبقا شفتيه ، صوت النهنهة يفلت رغما عنه .

مسح عينَيه وأنفه :

- آه رأتنا . التفتُ وأنا فى الفراش ورأيتها واقفة بباب الحجرة ، مستندة إليه . أعرف وقفتها ، تخشى أن تقع . حتى الباب لم نغلقه . ولا صوت خرج منها . ولا صوت . كنت عاريا أبحث عن شىء أتغطى به . لم ترنى أبدا عاريا . كل مرة أخلع هدومى تدير وجهها . جارتى جنبى . رفعت رأسها ونظرت إلى امرأتى . وقامت. القميص مشمور حتى صدرها . وواقفة على السرير . مدت رجلها من فوقى . وأنا عينى على فخذيها . عندما قوست ساقيها بانا أجمل وأجمل . إنما امرأتى . وهى أرادت والله أعلم أن تريهما لها . لبست الروب والشبشب وسوت شعرها بيديها . حتى دبابيس الشعر تثبتها واحدا بعد الثانى . ومشت للباب . امرأتى أبعدت جسمها حتى لا تلمسها . جارتى ركبها عفريت .

زعقت بأعلى صوتها :

- عندك .ألحسيه .

وخرجت . امرأتى محنية على نفسها تنظر إلىّ . صحتها أصلا تعبانة . وأنا فى السرير . وماذا أفعل أو أقول . وهى استدارت وخرجت .

- وما جاء بها إلى الشقة ؟

- ما جاء بها ؟

أمسك زفراته وجفف أنفه :

- طبعها . وكنت نسيته . لاترمى حاجة أبدا . اشترت مواعين جديدة عندما انتقلنا . والمواعين القديمة بقيت فى الشقة . ومن يخطر له أنها ستحتاج لواحدة منها . إنما تقول أيه . معها مفتاح وجاءت .

– ومتى ؟

– من خمسة أيام . تقول أسامحك فى أى حاجة إلا ده . لا تأكل أبدا . راقدة فى السرير . تريد أن تموت . أدخل الحجرة تأخذ فى البكاء وتشهق فأخرج .

– وأولادك ؟

– أولادى . لا أعرف . معهم أختهم . لو تأتى معى !

-أين ؟

– تكلمها . تعرفك . كلمتها عنك . وتعرف أنك أتيتنى بعمل إضافى . كانت تدعو لك دائما . كلمة منك ...

– وماذا أقول لها ؟

– لا أعرف . يكفى مجيئك .

خرجا . سارا فى صمت . استأذنه يونس أمام باب الشقة وكان مضطربا . غاب لحظة فى الداخل وعاد ، الشقة مرتبة ونظيفة . الأثاث ما يزال جيدا . صور معلقة على الحائط لأشجار وأزهار وفاكهة . الأولاد كما رآهم من قبل يقفون جانبا ينظرون إليه ، ثم جاءوا وسلموا عليه . البنت كبرت قليلا ، تلبس بيجاما وفوقها روب من الحرير . ابتسامتها خجولة .

سار وراء يونس الذى فتح باب الحجرة وهمس :

– تفضل .

رائحة البخور تذكره دائما بالموت . ضوء خافت . اللون الأبيض . الجدران . الستائر . السرير . ملاءة الفراش والغطاء ، حتى جلبابها . وسائد خلف ظهرها . تنظر إليه . يتقدم نحوها . يدها باردة ، واهنة ، الوجه شديد النحول بلون باهت ، عيناها غائرتان حولهما هالتان داكنتان . شعرها

فقط ظل محتفظا بحيويته ، يجلس على مقعد أعد له جنب الفراش ، يونس جلس على طرف مقعد فى مواجهته بالجانب الآخر .

– كتر خيرك يا أستاذ سالم .

تبلل شفتيها الجافتين بطرف لسانها .

يسود الصمت .

يونس ينظر جانبا ، يحاول أن يمسك دموعه ثم ينهض مغادرا .

ستارة تتحرك خفيفا . النافذة وراءها لم يحكم إغلاقها . تستقر نظرته على أصابع يدها فوق الغطاء ، لونها الأصفر الشاحب . الإصبع الصغير مقوس يتحسس خيطا نافرا من نسيج الغطاء .

تغمض عينيها . رعشة خافتة بجفنيها . هى راضية بالموت .

ينتظر عودة يونس .

يسير وراءه دون صوت . ويخرج .

وتراها مرة أخرى . نفس المكان أمام المركز . جلبابها الأسود الطويل، والطرحة السوداء حول رأسها انحسرت عن مقدمة شعرها وجانب من رقبتها وأذنها وفردة الحلق الذهبية تلمع فى انعكاسات الضوء ، وكأنه المشهد يعيد نفسه ، الشبشب أيضا المفتوح من الأمام ، هذه المرة ترفع قدما إلى درجة السلم ، أظافرها الملونة . كنت قادما من العتمة وعيناك لا تفارقانها حتى أنك لم تر السبعة الذين يرافقونها ، وكانوا قعودا جنب جدار ، تتوقف بعد أن صعدت ثلاث درجات ، أردت أن تكون فى مكان مرتفع قليلا حين تعاود النظر إليها . تلتقى عيناك بعينيها ، تنتبه إلى أنك أطلت النظر إليها ، حركة ما صدرت من ناحية السبعة القاعدين نبهتك ، نظرتها ثابتة بلا تعبير . وكنت تظن من كثرة ما فكرت فيها وهمست لها أنها لابد انجذبت إليك ، عادة ما تستدعيها قبل النوم ، وتراها مقبلة عليك ، تزيح بإصبعك ما انساب من شعر على وجهها ، وتأخذه بين يديك ، ترمقه فى شغف متحسسا شفتيها الممتلئتين بشفتيك ، وتريح رأسها على صدرك ، ودائما ما يتوقف الأمر عند هذا الحد ، وتروح فى النوم . لم يحدث أبدا أن خلعتَ عنها ملابسها واحتويتها ، شىء بداخلك كان يحذرك أن اللحظة لم تأت بعد ، ولو حاولت فربما تختفى . فى وقفتك على السلم تنظر إلى السبعة ولا تراهم . تعود بنظرك إليها . هو نفس الوجه الذى عرفته ، حتى الحسنة الصغيرة جنب أذنها التى تحسستها كثيرا بطرف لسانك ، غير أنه الآن فاتر . مبتعد . تستدير للسبعة :

تسألهم عما يفعلونه هنا ؟

صوتك على غير العادة يخلو من الغضب .

أولاد الشام التقطوا النبرة الهادئة فى صوتك ، لم يقفوا وأنت تكلمهم ، ولم يغيروا حتى من قعدتهم . وقال واحد منهم موجزا ويده تشير بتراخ إلى داخل المركز :

-هناك .

فى طرف آخر كان سينال صفعتين مدويتين . الغيظ كاد يمور داخلك . تمسك نفسك ، ترمقهم ساكنا حتى يعود لك الهدوء . تلتفت نحوها ، تسألها فى همس:

– وأنت ؟

يرد واحد من السبعة :

– زوجها أيضا .

أردت أن تسمع صوتها . الشىء الذى تفتقده حين تستدعيها ، واجتاحك غضب ، هبطت درجة سلم تريد أن تبطش بهم ، وتوقفت . فى نزولك اقتربت منها . كنت قريبا جدا . تشم عطر جسدها ، وأنفاسها ، هى فى وقفتها لم تغيرها . نظرتها أيضا . لا تتحمل لا مبالاتها ، تستدير فجأة وتصعد السلم مسرعا ، خطوتك بها غضب تحاول أن تخفيه ، لم تنتبه إلى التحيات العسكرية ولا رددت عليها . تدخل مكتبك وتغلق الباب ، تلوم نفسك فى شدة لما مررت به من لحظات ضعف . كيف ؟ وتسمح لهم ؟ ولها ؟ مهما كانت ، تهز رأسك فى عنف رافضا أن تستعيد المشهد على السلم .

ويمضى وقت وتهدأ .

كانت أخبار وصلت المركز تفيد أنهم فى مصنع النسيج بالبر القديم يعدّون لإضراب ، تقدموا بمطالبهم فى مذكرة رفعوها إلى صاحب المصنع

الذى رفضها ولم يهتم بإبلاغ المركز حتى تتخذ الاحتياطات الواجبة فى مثل هذه الحالات . أنت أيضا لم تبد اهتماما . ما أكثر الإضرابات التى تعاملت معها فى حياتك الوظيفية ، تقول لمعاون المباحث والضباط الذين عقدوا اجتماعا :

– مجرد أن تحيط بهم وتجدهم يفرون . رؤيتهم للعسكر مقبلين تثير هلعهم . عليكم فقط ان تدفعوا بالعسكر بشكل مثير . دروع وهراوات وخوذات . والمهم خطوتهم . عنيفة تهز الأرض . وفى اليوم التالى ستجدهم يعودون لعملهم .

– وإذا لم يعودوا ؟

– طوال مدة خدمتى كانوا دائما يعودون . أتكلم عن مصانع فى غير هذا البلد . عدا مرتين ، أمسكنا فيهما بعشرة منهم . تختار العشرة من القدامى . حين يتقدم بهم العمر تكثر طلباتهم . تكاليف زواج الأولاد . تكاليف المزاج الذى يأتى عادة متأخرا . وأحيانا زوجة ثانية أصغر فى السن . ترمى بالعشرة فى الحبس . هم المحرك دائما . يوم والثانى ووجدناهم عادوا للمصنع ، وأفرجنا عن العشرة، فى كافة إضراباتهم مطالبهم واحدة . رفع الأجور . التعويضات . تحسين الخدمات الصحية . ولو استجبت لهم مرة ستحلو اللعبة .

– ما يمنع لو احتطنا لوقوع اشتباكات ؟

– لست ضد ذلك . إنما خذها منى كلمة . هم لن يسعوا أبدا للاشتباك . عمال يطلبون رفع الأجور وخدمات صحية لا يشتبكون فى معارك. ضرب . إصابات . ووقف عن العمل . إضراباتهم دائما نوع من الفقاعات . إثبات وجود . مسايرة البعض من المحرضين . ليست جادة بالشكل الذى يقلقنا .

– والتخريب فى الخفاء . حرق المصنع مثلا ؟

- شوفوا . من خبرتى فى العمل والدنيا . وهذا كلام بينى وبينكم _ تضحك قليلا وتواصل - لم يحدث أبدا أن أحرق عمال مصنعا . هل سمعت عن فلاحين أحرقوا فى غضبهم زرعا أو قتلوا ماشية ؟ مصدر أرزق ؟ . لا . تخطئــون لو ظننتم أنى أقــول ذلك مـدحـا فـيـهم . إضـراباتـهم خـروج عن القانون ، ولابد من أن نتعامل معها . ما أريد أن أؤكد عليه . أهمية وجود خلفية غير مشوشة عندكم حتى لو قلتم أى كلام بخلافها . وهذا يجعلكم على بينة من حقيقة الوضع مهما كان تصرفكم بعد ذلك . وربما يساعد هذا فى اختيار اللحظة التى تتوقفون عندها .

ترضيك نظرات الإعجاب التى يرمقونك بها ، وتمضى إلى مكتبك . قلت كلاما كبيرا . أنت نفسك كنت مندهشا وهو يرد على لسانك . القول شىء والعمل شىء آخر . لن تسمح أبدا بوقـوع أى إضـراب مـهـمـا كـانت عـدم خطورته . أى خـروج عن المســمــوح به إهـانة لكل مــا تمثله . شىء آخـر احتفظت به لنفسك ، مـا قد يحدثه الإضـراب من هياج يعم البر القديم . الشرارة. همك الكبير . ما نبهتْ إليه الرئاسة منذ مجيئك . احذر البر القديم . دعه نائما . لا تجعله يخدعك .

مـا أن دخلت مكتبك حتى طلبت تعزيزات على وجه السرعة من إدارة الأمن المركزى .

- ما الأمر ؟

- إضراب يلوح فى الأفق .

- لا بأس .

معاون المباحث جاء بخمسة من العاملين فى المصنع ، يحاول أن يعرف منهم مـا يجرى فى الخفـاء . أنت اتخذت قرارك وانتـهى الأمر . ستتـعامل وكأن إضرابا سيحدث . وإضراب له خطورته .

تخرج من مكتبك .

الخمسة واقفون أمام الملازم الذى يجرى التحقيق ، ومعاون المباحث يقف عن كثب يرقب وجوههم أثناء الكلام . الملازم يرفع عينيه نحوك ، تعطيه إشارة أن يوقف التحقيق . تنظر فى وجوه الخمسة ، أيهم زوجها ؟ تحاول أن تخمنه . حتى اسمه لا تعرفه . ولا اسمها أيضا . من يكون بينهم الذى يناسبها؟

كلهم كالحو الوجوه ، ولا واحد منهم تختاره لها .

ترسل من يأتى بواحد من السبعة فى الخارج والمرأة أيضا .

ترقبها قادمة . خطوتها غير متعجلة ، وعودها مستقيم لا يتمايل ، وماذا كنت تتوقع ؟ . أنت فى أبهى صورة . مشدود القامة والعصا تحت إبطك ، والكاب يميل خفيفا على رأسك فى الوضع الذى تعرف أنه يعطى طابعا رقيقا لوجهك.

تسأل الرجل القادم وطرف عينك على وجهها :

– هم ؟

– أه هم .

تستدير إليها : وزوجك ؟

نفس النظرة الفاترة ، ويأتى صوت من جوارك :

– أنا .

ترمقه خطفا ، وكان ذلك كافيا لتطبع صورته فى ذهنك ، وكنت متعجلا لتخلو إلى نفسك ، تستعيد الصورة وتتأملها وقد أدهشك اختيارها . وأصابك بخيبة أمل ، كنت تنتظر أن يكون اختيارها متميزا بشكل ما ، ربما لم يكن لها يد فى الاختيار مثل أغلب الزيجات فى البر القديم . قد يغفر لها

ذلك . غير أن مجيئها وراءه إلى المركز يعنى قلقا وحرصا عليه ، وربما يكون من قبيل العادات وأداء الواجب وهو ما تميل إلى الاعتقاد به .

تستدير إلى الملازم :

- اقفل المحضر .

الملازم مأخوذا يرفع عينيه إليك ، ثم يلتفت إلى معاون المباحث كأنما يستعين به ، ومعاون المباحث مال بوجهه جانبا يدارى ابتسامة صغيرة .

أنت فى أبهتك ، وهج بداخلك دفع الدماء إلى وجهك الشاحب :

- هذه المرة . سنفرج عنكم .

تنتقل عيناك من الستة إليها ، ثم تعود إليهم :

- المرة الثانية لا تكون معاملتنا لطيفة .

قال واحد من الستة :

- لا نعرف حتى الآن لماذا نحن هنا .

كنت تفضل لو أن زوجها هو من تكلم . تقول متأهبا للانصراف :

- المرة القادمة تعرف .

ترمقها خطفا وأنت تستدير ، تبحث عن صدى ما قمت به . عيناها كما هما لا تفصحان عن شىء , لا يضايقك الأمر ، تبتعد راضيا ، جاء المشهد كما أردت . هى لن تفصح أمامهم بالطبع .

لا أخبار جديدة عن الإضراب المتوقع ، ربما تمهلوا أو يتكتمون الأمر . أنت لا تثق فى الصمت هناك ، جاء جنود الأمن المركزى ، عرباتهم فى صفين على جانبى الشارع الرئيسى المجاور لمبنى المركز ، هم فى قعدتهم الكسولة فى الساحة خلف المبنى ، يقشرون البرتقال بخناجرهم ، وبناء على أوامرك يتشكل طابور ثنائى منهم يجرى بالخطوة السريعة بامتداد شاطىء النهر وصيحتهم ها .. ها تشق الفضاء .

تبتسم فى مكتبك حين تسمعها ، وتقول لمن معك من الضباط :

– ومن يدرى . ربما اكتفينا بها .

وترد أخبار من اثبر التقديم أن تلاميذ المدارس سيتظاهرون لدى قيام الإضراب تعزيزا لمطالب العمال . وتسأل :

– أى مدارس ؟

– الثانوى .

– كل الثانوى ؟

– كله .

تغمغم : والبنات أيضا !

هذا ما توقعته . امتداد اللهب ، والإضراب لم يقع بعد .

من السهل التعامل مع العمال . محاصرتهم وبعض التهديدات وتنفضّ ، يذهب كل لحاله . التلاميذ شىء آخر ، من الصعب محاصرتهم أو ملاحقتهم ، فوق السطوح ، وعلى الأشجار ، ومن شارع لآخر . والحجارة ، تسمع صفيرها فى اللحظة الأخيرة . ولا تدرى من أين انطلقت ، والرماح والسهام ، يصنعونها من فروع الشجر ، لك تجارب سابقة فى بلاد أخرى ، والألوان التى يضعونها على وجوههم ، مثل الهنود الحمر والزنوج ، حتى صيحاتهم حين يمرقون عن قرب . كله من الأفلام التى يشاهدونها فى السينما والتلفزيون ، وهذا ما قلته فى اجتماع مع رئاستك من زمن :

– إن عجزنا عن اغلاق السينما فعلى الأقل هناك اختيار لما يعرض من أفلام . خاصة التلفزيون . مالها أفلام الأغانى والاستعراضات ؟

يومها علق واحد من رؤسائك وقد استخفه المرح :

– وبدلا من جيل مشاغب نواجه بجيل من نوع آخر لم نتعلم بعد كيف التعامل معه .

المركز مستنفر . إلغاء جميع الإجازات . الكل بملابس الميدان . تكثيف التحريات . زيادة الدوريات . تطلب من الملازم الذى يقوم بدورية المغرب فى البر القديم أنّ يبادلك . تفلت منه صيحة دهشة :

- يا أفندم ..
- ما الأمر ؟
- حضرتك مستهدف هناك .
- من أين جئت بهذا الكلام ؟
- أبدا هذا ما فهمناه .
- استنتاج ؟
- لا قدر الله لو نالوا منك . سيقال المأمور . أما أنا فمجرد ملازم .

وتذهب بدوريتك إلى هناك . تأخذ جولتك حول المصنع والمدارس والأماكن الحيوية ، ثم تمضى فى الشوارع . لا شىء يوحى بأنهم يعدّون أمرا . تعتمد على حاستك . رغم ذلك تحس بروح العداء ، ليس الأمر فى حاجة إلى إعداد، غالبا ما يأتى مفاجئا . طبعهم وأنت خبرته فى بلاد أخرى . ينامون الليل ولا شىء فى بالهم ، وفى الصباح يتغير الأمر .

وتمر بالدورية فى الشارع الضيق الذى به بيتها . تعرف البيت ، لمحته مرات عن بعد . البلكونات فى الشارع مفتوحة كلها فى مثل هذه الساعة ولا أحد بها ، وقْع حوافر الجياد عادة ما يجذب العيون ، وكأنه رفض لرؤيتك ، تتمهل فى سيرك مقتربا من بلكونتها ، والجواد يكاد يرقص فى خطوته . فوطة معلقة بحبال المنشر ، بجوارها قميص داخلى بلون وردى بذيله دانتيلا من نفس اللون . لا يتحرك مع نسمات الهواء ، وتقول لنفسك أنه ما يزال مبتلا . وتمر بالبلكونة الخالية وتمضى .

وتأتى الأخبار فى الصباح بأن النسوة والبنات العاملات فى البر الثانى لم يعبرن الكوبرى اليوم .

تسأل : كلهن ؟

- ولا واحدة عبرت .

ويقول معاون المباحث : مقاطعة .

ويضيف مبتسما : وبعدها الحرب .

يقول ملازم كان واقفا :

- التحريات سألت واحدة منهن عن السبب . كل ما قالته "غصب عنى" .

يقول المعاون : أوامر صدرت لهن .

تضيق بالمعاون الذى يسرع بالتعليق على ما يقال دون تفكير، ويضايقك أكثر هزة قدميه فى كل مرة يتكلم ، منذ اكتشف شغفك بالمرأة فى البر القديم وهو يعطى لنفسه الحق فى معاملة خاصة معك . أنت لا تتوقف أمام هذه الصغائر، غير أنه أحيانا يفيض بك ، وتنوى أن توقفه عند حده .

يحيرك ما فعلته النسوة والبنات ، لقمة عيشهن ، وعلاقات مودة فى البيوت والمحلات التى يعملن بها ، يرمين بكل ذلك فى لحظة . ومن يقبل بهن بعدها؟ .

تتصل بك الست نجوى . تقول إن لك أياما لا يراك أحد .

تعتذر بمشغولياتك .

تقول بصوتها الناعم : ومتى كان شغلك يمنعك عنا ؟

تعودت على طريقتها فى الكلام . مقدمة ودودة ، تحبها أنت وترغب فى إطالتها ، بعدها تحدثك فيما تريد ه . تسألك :

- والأخبار ؟

– كله تمام .

– نسمع كلاما .

– لا تصدقى كل ما تسمعينه .

– وبم تنصح ؟

– لا أنصح بشىء .

– يا ساتر . مأمور مركز بصحيح .

– أنت أدرى منى بما هو أفضل لك .

– الأفضل لى أن تأتى لنشرب الشاى معا .

– يوم آخر .

– طيب . ما رأيك لو سافرتُ يومين ؟

– إذا كان ولابد فبشروط . أولا تخبرينى بيوم سفرك . وستخبريننى بدون شروط .

– طبعا سأخبرك . وثانيا .

– ثانيا . لا تجعليهم فى البر القديم يحسون برحيلك . ممنوع السفر بالقطار . ربما يلمحك البعض . السفر بالسيارة وفى الليل . الطريق من هنا يصل مباشرة إلى الطريق السريع وإلى العاصمة ، فلا يراكم أحد . تسمعيننى ؟

– أسمعك .

– لا حقائب . لا شىء يلفت النظر . وكأنك خارجة فى مشوار . واتركى خادما أو اثنين . والحديقة تضاء فى الليل . وضوء آخر داخل الفيلا . وتعودين بالسلامة .

ويكلمك الحاج فوزى وآخرون . هى على ما يبدو أخبرتهم ، وأرادوا التأكد ، وتعيد عليهم ما قلته لها .

يبدو البر الثانى كالمهجور . رحل الكثيرون . الشوارع شبه خالية ، وأغلب المحلات مغلقة ، حتى الأنوار التى كانت تضاء فى الليل أمامها تركوها مطفأة .

كنت ساخطا وأنت تستكشف الوضع على صهوة جوادك . اتسع الرحيل بشكل لم يخطر لك . يفتقدون الحس الأمنى . الصمت الثقيل . لا شىء يوحى بالحياة كما كانت تجرى . لا مرح وضحكات فى الشوارع ، ولا نداء بأبواق السيارات ، ولا حفلات صاخبة تترامى أصواتها فى سكون الليل . النافورة فقط ، ظلت مياهها وأنوارها الملونة تتدفق ليل نهار ، وحولها المقاعد خالية .

تحس أن رحيلهم كان خطأ كبيرا ، وكان باستطاعتك أن توقفه أو تقلل من حجمه . لكنك أردت ان تكون الصديق الأمين وتعطى نصائحك بطريقة متوارية .

تلمح فى نهاية جولتك كلبا ضالا يقف على نواصى الشوارع مترددا ، يتشمم الهواء ثم يواصل السير ، الكلاب فى البر الثانى داخل الأسوار . تتأمله قليلا . قذارة سيقانه ، والشعر الناحل بذيله وظهره ، هو كما ظننت ، ويتأكد ظنك حين تراه يرفع ساقه الخلفية عند نهاية سور فيلا ، وترى البول يسيل على الرصيف ، لا يفعلها غير كلب من البر القديم .

إذا كانت الكلاب هناك أحست بالفراغ الذى خلفه رحيلهم فما بالك بهم ؟ . حتى الآن اقتصر الأمر على ما تسميه " بعض المداعبات الخشنة " . زمجرة خافتة . وماذا بعد ؟ وهل كان وجودهم فى البر الثانى يمنعهم من عمل شىء إذا أرادوا ؟ . رغم ذلك فالرحيل المفاجىء قد يغرى البعض منهم بعمل شىء.

تكثف من دورياتك بالبر الثانى وتوقفها بالبر القديم . وتنشر عددا من المراقبين الدائمين بامتداد الشاطىء يتخفون خلف الأشجار ، يرصدون أى تحرك غير عادى هناك بالبر القديم . وترى أنك اتخذت ما يلزم من احتياطات. وجنود الأمن المركزى ما زالوا لديك ، مستلقين خلف مبنى المركز . ما يقلقك أنك لا تلمح شيئا غير عادى . الأمور هناك تسير فى إيقاعها المألوف . تراهم يأخذون مشيتهم المعتادة على الكوبرى بعد تناول العشاء ، يتوقفون مستندين بظهورهم للسياج ، يتكلمون ويضحكون ، ثم يعودون .

ويوما أخبروك أن ضجة تترامى من هناك . التحريات لم تأت بما يفيد حدوث أو توقع شىء . الوقت ليل . تتخفى بعساكرك قرب رأس الكوبرى ، وجنود الأمن المركزى تأهبوا بدروعهم وعصيهم خلف الأشجار فى الحديقة المطلة على النهر . الأصوات تتعالى بالضفة الأخرى ، وانفجارات ملونة فى الفضاء المعتم ، ترقب رذاذها ينتشر وينطفىء . يأتى من يهمس لك :

– فرح يا أفندم .

وكأن أحدهم أيقظك من نوم ثقيل . تكاد تصرخ :

– فرح ؟ أى فرح ؟

الملازم تراجع خطوة أمام زعقتك ، يشير بيده مضطربا إلى البر القديم :

– هناك . واحد يتزوج .

تحدق فى وجهه تحاول أن تعى ما يقول ، تنتبه لصوت المزيكة وإيقاع الدفوف والزغاريد :

– آه فرح .

يسترخى جسدك فجأة ، تبدو هامدا فوق جوادك . تغمغم مرة أخرى :

- فرح .

النوم أول ما فكرت فيه وأنت تستدير بجوادك . النوم للصباح .

فى النهار كلمك " السعدى " صاحب مصنع النسيج ، لا تميل إليه كثيرا . هو أيضا . نادرا ما تبادلتما حديثا ، قال :

- كلمونى من المصنع . وفد قادم . لا أعرف إن كنت أقابله أم لا ؟

رغم ما يبدو عليه من بلاهة فهو حذر فى خطوته ، ولا يفصح أبدا عما يبطنه. تقول :

- اعطنى دقائق وأرد عليك .

كنت فى حاجة إلى التفكير فيما تقول له . تخشى أن يستخدم كلامك بما لا يسرك . وفيم يستخدمه ؟ لا تعرف . لكنه إحساسك ، فأنت لا تطمئن إليه . وكان يمكنه معالجة مشاكل المصنع بما لا يجعله بؤرة ملتهبة ، وربما كان له غرض من وراء هذا التوتر . غرض تعجز عن تخمينه ، فمثله يخفى ما يريد فى أعماق سحيقة . تقول له بعد مرور دقائق :

- أنصح باللقاء العادى . تقابلهم كما كنت تقابلهم من قبل ، وتسمع لهم. ثم تقرر ما تشاء .

- الوضع مضطرب لهذه الدرجة ؟

- أى وضع ؟

تسمع ضحكته ويغلق الخط .

حكت لك الست نجوى عنه ما جعلك تزداد بغضا له . الرجل نهم لبناتها . طلباته كثيرة بطريقة غير معقولة . تعتذر مرات بعدم وجود واحدة فى متناولها ، وينفجر غضبه :

- ماذا تقصدين ؟ . عندك فصيلة كاملة وتقولين هذا الكلام ؟

وتكرر اعتذارها فى استياء . ويقول :

– عندى العربة والسائق . أرسله إلى أى مكان فى أى بلد ليحضرها . عمرك شفت واحداً مثل ذلك ؟

تضحكان . وتحكى :

– ويوما طلب بنتين .

سألته : من عندك ؟

أحب دائما أن أعرف لمن أرسل البنات .

قال : لا أحد ؟

– والبنتان ؟

– لى .

– لك ؟

رفضت فى شدة . وقلت فى غضب :

– بناتى غير ما تظن . لاأعلمهن الفجور .

– أى فجور ؟

– فجور . وفجور .

البنت تعود من عنده مهدود حيلها ، وتأخذها نوم . فين وفين أما تمشى على رجليها . وبدأت البنات يتهربن منى ويدّعين المرض حين يعرفن أنه المقصود. واحدة منهن قالت مرة " كله مقدور عليه . إنما رائحة فمه " .

تقول أنت مبتسما : أعرفها .

تلتفت إليك : تعرفها ؟ نمت معه ؟

تضحكان ، ثم تميل نحوك :

– إلا صحيح . دائما أنسى أن أسألك . لم تطلب خدماتى حتى الآن ؟

تبتسم لها .

- ألا تعجبك بناتى ؟

- تعجبنى .

- أختار لك ؟ على ذوقى . شقة بالعاصمة . أو على البحر . ما يعجبك. تأخذ أجازة يومين وتعود لتشكرنى .

تقول ضاحكا : لا أريد غيرك .

- طيب . أكمل لك . آه السعدى . تعبت منه ومن طلباته . فى النهاية جئته ببنت إنما هى . لا أرسلها لأصحابى أبدا . أخاف عليهم منها . وتراها ولا يبان عليها . وقلت إن لم يصلنى خبره عن قريب فعلى على الأقل لن يطلب المزيد . واللى حصل !

تنتظر أن تواصل حكيها . تأخذ رشفتها الأخيرة من فنجان القهوة وتضعه جانبا ، تلمح عينها ما تساقط من رماد سيجارتك على زجاج المنضدة ، ترمقك فى عتاب ، تسارع بالاعتذار ، وتخرج منديلا لتزيله ، توقفك بإشارة من يدها وتنادى الخادمة . وتعود للحكى :

-أن تعود البنت . لا تعود . يومان . ثلاثة . واتصلت به . قال أنه لن يعيدها . فلن يقبل أبدا أن تذهب لواحد غيره بعد ذلك . وكل ما تريدينه أنا تحت أمرك . أنا مذهولة . قلت له طيب أكلم البنت . وكلمتها . قالت إنها مبسوطة . وعرفت منها أنه يأتيها بكل ما تريد . أفلام . فواكه . فساتين . مصاغ . وأنهما يقضيان معا سهرات تجنن، إنما ممنوع الخروج هنا أوهناك، لا تزور ولا تزار ، وإن أرادت الفسحة فرجله على رجلها . يأخذان السيارة ويغيبان أياما ويعودان . وما زالت عنده . لها ثمانية شهور حتى الآن .

وتأتيك أخبار لقائه بالوفد القادم من المصنع . هم ثلاثة . وقفوا ببوابة الفيلا وطلبوا من الحارس أن يبلغه بمجيئهم .

عاد الحارس . قال :

- انتظروا . دقائق ويطلبكم .

انتظروا ساعة كاملة . وجاء خادم من الداخل يبلغهم باعتذاره عن المقابلة . وعادوا .

معاون المباحث كان ينتظرهم عند رأس الكوبرى ، جاء بهم إلى المركز ووضعهم فى الحجز . خرجت من مكتبك تستطلع الأمر ، ورأيتهم فى الحجز، زوجها بينهم . أنت لم تتحمس كثيرا لما فعله معاون المباحث الذى أقبل عليك صاخبا :

- سمعت بلقائهم مع السعدى ؟ عاملهم كما يجب . زعماء ! رأيتهم ؟ محركو الإضراب على ما يبدو . اقرأ .

الورقة كانت معهم لتقديمها للسعدى . تنظر فيها . مصاريف العلاج كان يتحملها المصنع . ومنذ ثلاثة شهور قررت إدارة المصنع أن يتحملها العمال والموظفون ، ويتم تقسيطها خصما من الأجور ، هم يطلبون فى ورقتهم من السعدى أن يتدخل ويعطى أوامره للإدارة أن تعود الأمور كما كانت خاصة وأن أغلب حالات العلاج لإصابات عمل .

ما أن تنهى قراءة الورقة حتى يعود المعاون لصخبه :

- الألاعيب إياها . دمل . مجرد دمل ويذهب للدكتور . ويطلب علاجا أشكال وألوان . والدكتور يكتب . وحتى بدون دمل . يذهب ويطلب أدوية معينة لأولاده وأقاربه واكتب يا دكتور . معه حق السعدى أن يوقف هذه المسخرة .

ويأتى الثلاثة للتحقيق . يقفون أمام نفس الملازم . أنت غير بعيد . يقول الملازم :

– هذه المرة قل عددكم . كنتم خمسة .

يتأمل وجوههم لحظة ويسأل :

– من تكرر مجيئه منكم ؟

لا ينتظر الاجابة . يشير إلى زوجها :

– أنت . ورغم تحذيرنا . وأنت من سأوجه إليه الأسئلة . لا أريد غيرك يرد . سمعتما ؟

س : تقدمتم بمطالب للسعدى صاحب المصنع . ماذا فى نيتكم أن تعملوه بعد رفضها ؟

ج : ولا حاجة . مصنعه . وماذا نفعل غير السمع والطاعة .

س : قلت فى تحقيق سابق أنك تعمل فى الإدارة القانونية بالمصنع . يعنى درست القانون . ما رأيك فى مشروعية الإضراب ؟

ج : لا أعرف . لم ندرسه فى الجامعة .

س : ومن غير دراستك فى الجامعة . رأيك أنت ؟

ج : الإضراب عامة غير مستحب .

س : وإذا كان هذا رأيك لم شاركت فى الإعداد للإضراب بالمصنع ؟

ج : أى إضراب ؟

المرة الأولى التى يأتى ذكر الإضراب فى التحقيق معهم . أخطأ الملازم . فما كنت ترغب أن تُكشف معرفتكم بما يجرى فى المصنع . ذلك يجعلهم أكثر حذرا ، وسينشطون فى البحث عمن يسرب الأخبار .

تكتفى بما سمعته . تعرف مقدما مناورات الملازم التى ستدور حول الإضراب محاولا التقاط أى معلومة ، وهم من وجوههم أكثر فطنة مما يظن الملازم . تمضى إلى مكتبك .

وكنت مستلقيا وتحس فجأة أنها جاءت . تعتدل فى قعدتك محدقا إلى الباب المغلق .

تقول لنفسك هى هناك .

لحظة وأخرى وتقف أمام المرآة الصغيرة تسوى ملابسك ، تبتسم وتغمغم مثل مراهق . العصا تحت إبطك وتخرج .

تلمحها فى وقفتها كما فى المرتين السابقتين ، عيناها مصوبتان إليك ، تلتقيان بعينيك ، تتجاهلها ، تعطى ظهرك للباب الخارجى ، تتحدث إلى الملازم الذى وقف منتصبا .

تسأل عن الثلاثة ؟

– أعدناهم للحجز يا أفندم .

– خرجت بشىء ؟

– إنكار تام . فى انتظار قرار سيادتك .

– وأنت ؟ رأيك ؟

– هم بالتأكيد يخفون شيئا . ولا يريدون أن يظهروا كواشين .

– وبعد ؟

– ربما المعتاد .

– المعتاد ؟

– علقة صغيرة تفك ألسنتهم . لو تهديدهم بأنه سيتم إبلاغ المصنع باعترافهم ، وللتأكيد نقبض على البعض فى المصنع .

– لا هذا ولا ذاك . انتظر .

تلاحظ أن حذاءك متترب ، نسيت أن تنظفه ، وترمى بنظرة خاطفة إلى الباب الخارجى . هى فى وقفتها وعيناها عليك . أربعة يرافقونها ، يقفون

غير بعيد عنها يتلصصون بنظراتهم إلى الداخل . تعود إلى حجرتك . تجلس خلف المكتب . ترن الجرس . يأتى المراسلة .

- امرأة فى الخارج . هاتها .

وتأتى . تقف عند الباب الذى أغلقه المراسلة . تشير إلى مقعد أمام المكتب ، تتقدم وتقف جنب المقعد ، تنظر إليك . تتحاشى نظرتها . تقول :

- اقعدى .

تظل واقفة . تريد أن تبدو فكها ولو قليلا ولا تدرى كيف ، وتريد أن تكلمها فى أشياء أخرى بعيدة عن القضية المطروحة ، ولا تدرى ما تقول . تسألها :

- تعرفين لماذا ناديتك ؟

نظرتها لا تفصح عن شىء . عيناك فى عينيها ، لحظة وأخرى ، تكاد تنسى نفسك . تخفض نظرتك :

-زوجك هنا .

تحس أنك تقول كلاما غير الذى تريده . كل ما تسعى إليه وتنتظره بادرة منها . مجرد بادرة صغيرة ويتغير مجرى الكلام .

يداها متشابكتان أسفل بطنها ، أصابعها الطويلة ، وخاتم فالصو بفص . ربما أحست بنظرتك ، أسقطت يديها جنبها .

- فى المرة السابقة حذرته . ولولا مجيئك يومها ما أفرجت عنه .

وجهها لا يفصح . ولا عيناها . صمت .

- هذه المرة موقفه صعب .

تنهض . تسير إلى النافذة . تنظر قليلا من وراء الستارة ، وتحركها بإصبعك. تلتفت . هى استدارت لتتبعك بنظراتها .

- كم سنة لك فى الزواج ؟

لا تجيب .

– من يراك لا يخطر له أنك متزوجة . قريبك ؟

لا تجيب .

– ما نعرفه أنه لا يسهر فى مقاهى . سهرته دائما فى البيت . ويأتى عمال وموظفون من المصنع للسهر معه . ويتكلمون طبعا فى أمور لا يجوز الكلام فيها .

تقترب . تقف أمامها . يداك خلف ظهرك . توقعت أن تتراجع خطوة . غير أنها ظلت فى وقفتها تبادلك النظرات .

– هذه المرة . فصل من العمل . وربما سجن .

تسكت منتظرا . ويطول انتظارك . تحدق فى وجهها . صوتك رقيق به بحة :

– أستطيع أن أخرجه .

تسكت مرة أخرى . عيناك لا تفارقان وجهها الساكن . يزداد صوتك رقة :

– والآخران أيضا . الآن .

– تمد يدك تحت ذقنها ، ملمس بشرتها ، رفعت ذقنها بعيدا عن يدك . قطبتْ خفيفا .

– قولى آه .

زاد تقطيبها ، لمعة غضب خاطفة بعينيها . ترمقها مترددا . أردت أن تقول شيئا ولم تقله . تستدير عنها ، تجلس إلى مكتبك مطرقا . فى لحظة أحسست أنها اقتربت منك ، والآن تراها تبتعد . كم مضى عليك فى إطراقتك . كنت ساخطا تلوم نفسك . لم تحس بها عندما غادرت .

الباب فقط لمحته مواربا . ما كان يجب أن تساومها . سرعان ما جفلت وانطوت .

تستدعى الملازم . تأمره أن يفرج عن الثلاثة .

– يا أفندم اعطنى مهلة . ما زلنا فى البداية .

– ليس هناك ما تمسكه عليهم .

– الورقة ؟

– أى ورقة ؟ طلب عادى لا يوجد به ما يخالف .

يقف لحظة مترددا . تعرف ما يريد أن يقوله :

"متى كان ذلك يمنعنا "

اعتاد أن يعصر المشتبه به ويستخرج منه ما يريد . تقول وكأنما لتخفف عنه:

– ارخ لهم الحبل .

تغادر المركز فى وقت متأخر . الجميع فى مكاتبهم وبدلا من نوبتجى واحد هناك اثنان يقعدان متجاورين ، الطوارىء ما زالت قائمة . وماذا تفعل فى ليلة كهذه وكل من تعرفهم رحلوا . تسير قاصدا رأس الكوبرى حيث اعتدت أن تلقى بنظرة أخيرة على البر القديم ، ولا تصل إلى الكوبرى ، تعود من منتصف الطريق إلى بيتك . تأخذ حماما وتستلقى فى الفراش . لا ترغب أن تلوم نفسك مرة أخرى .

ضوء خافت بالصالة . يتسرب من باب الحجرة المفتوح . يخفف من عتمتها . تحس باقتراب النعاس . ترقد على جنبك . ترى ظلها بمدخل الحجرة . منذ عرفتها تترك الباب الخارجى مغلقا بدون مفتاح أو ترباس . ومن يأتى غيرها . وتراها بالقرب من الفراش . شفتاها المنفرجتان قليلا ، تميل عليك هامسة :

– تنتظرنى ؟

ترمقها صامتا . عيناك الملهوفتان . تهمس مرة أخرى :

-آه . تنتظرنى .

تمر بإصبعها على شفتيك ، تعتدل فى وقفتها . تسحب الطرحة ، تلقى بها على المقعد المجاور ، تنثر شعرها ، ينساب كثيفا على كتفيها . تفك أزرار الجلباب الأسود ، تخلعه ، تضعه مع الطرحة . هى بقميصها الوردى . الحمالتان رفيعتان . صدرها الممتلىء . تمد يدها داخل القميص وتجذب الستيان . تجذبه فى بطء وترمى به فوقك . يخطر لك أنه حلم . هو حلم . لم يحدث أن خلعت ستيانها ، ولا كانت بهذه الرغبة المشتعلة ، تثنى ركبتها على حافة الفراش . تهمس :

- وتغضب منى ؟

كنت تريد ألا تستجيب لها ، وقد أرضاك إقبالها عليك ، ثم أخذتَ تلهث ، وجسدك يتحرك شوقا . تفسح لها . يداك المرتجفتان تسحبان قميصها . تحتوى جسدها . وتدس وجهك بين ثدييها . هى مقبلة عليك فى نهم . وتسمع الصوت ، وكأنه آت من بعيد ، وتسمعه مرة أخرى ، وتراه بطرف عينك واقفا بباب الحجرة يمد رأسه للداخل متلفتا . هو . هو . يتقدم ، يقف جنب السرير ينظر إليكما . تزيحها عنك . أنت حائر . مبعثر . تبحث قدماك عن الخف ولا تجده . تندفع نحوه ، تمسك بخناقه ، ترمى به أرضا ، تبرك فوقه ويداك حول عنقه ، هو يعافر تحتك . تحصره بين فخذيك ، تواصل الضغط على عنقه . تحس بالجسد يهمد أخيرا .

هو ممدد فى فراشه . فمه مفتوح وعيناه جاحظتان . وذراعه مدلاة ساكنة . الغطاء ملقى على الأرض ، لمبات الماكيت مطفأة . والفجر من خلال النافذة المفتوحة يلوح فى الأفق .

رقم الايداع: ٢٠٠٤/٩٣٩٠

I.S.B.N

977-07-1044-x



محمد البساطى

- وُلد ببلدة الجمالية المطلة على بحيرة المنزلة
- فاز بجائزة العويس الأدبية عام ٢٠٠٢
- له عشر روايات وهى:

التاجر والنقاش ١٩٦٧، المقهى الزجاجى ١٩٧٨، بيوت وراء الأشجار ١٩٩٣، صخب البحيرة ١٩٩٤، أصوات الليل ١٩٩٨، ويأتى القطار ١٩٩٩، ليال أخرى ٢٠٠٠، فردوس ٢٠٠٢، أوراق العائلة ٢٠٠٣ .

- له تسع مجموعات قصصية وهى :

الكبار والصغار ١٩٦٨، حديث من الطابق الثالث ١٩٧٠، أحلام رجال قصار العمر ١٩٧٩، هذا ما كان ١٩٨٧، منحنى النهر ١٩٩٠، ضوء ضعيف لا يكشف شيئا ١٩٩٣، ساعة مغرب ١٩٩٦، محابيس ٢٠٠٢، الشرطى يلهو قليلا ٢٠٠٣.

هذه الرواية

تنضم هذه الرواية الجديدة مع أعمال محمد البساطى الروائية السابقة منذ روايته الأولى التاجر والنقاش (١٩٧٦) حتى روايته الأخيرة أوراق العائلة (٢٠٠٣) تتشكل فى مجموعها مسيرة رائعة لروائى متميز .

وفى هذه الرواية سيكتشف القارئ أن المؤلف قد نجح فى خلق عالم جديد فى فن الرواية العربية تحكمه الكوابيس وتديره الأحلام المجهضة من خلال شخصيات خيالية يصنعها البطل ويضعها فى مكان متخيل ويحدد مصائرها ويكشف من خلالها عن إحباطات وإخفاقات المجتمع المليئ بالفوضى والفساد بلغة جديدة وبناء خاص تحاصر هذه الشخصيات المتخيلة: البطل المحتال الوحيد الحالم وتقذف به خارج الحكاية.

وفى «الخالدية» يبتعد البساطى عن عالمه القديم ولكنه يحمل عذابات شخوصه معه ليقدم لنا عملا فنيا جديدا متميزا فى مسيرة هذا الكاتب المبدع .